التاريخ السري لحرب العراق

يوسف بودانسكي



فصول من كتاب "التاريخ السري لحرب العراق" ترجمها موقع الناس

التاريخ السري لحرب العراق

يوسف بودانسكي

٢٠٠٥

فصول من كتاب "التاريخ السري لحرب العراق" ترجمها موقع "الناس"

الفهرس

الجزء الاول: السباق إلى بغداد - ١ .... ٦

مقدمة المترجم.......... ٧
الصفحة الافتتاحية ١٠
ظلوا مصرين على الخطأ ١٣
الكرملين لم يصدق ١٣
الحقيقة: تضليل!.......... ١٤
المخادعة ١٥
نشاط استخباري سابق.......... ١٨
نقص في الاستخبارات.......... ٢٠
تقديرات المعارضة.......... ٢١
المخابرات العراقية.......... ٢٢
ما التجمع؟.......... ٢٤
لقاء غريب ٢٦
دور نزار الخزرجي ٢٨
الخزرجي في العراق.......... ٣١
اتصالات الخزرجي ونتائجها.......... ٣٢
الكرملين يراقب.......... ٣٣
منطق فرض نفسه ٣٤
وساطات ٣٦
أمين الجميل.......... ٣٧
الكرملين مرة أخرى.......... ٣٨
مهلة بوش لصدام.......... ٤٠
الحرب بدأت فعليا.......... ٤١
ملحق عن المخادعة - معلومات.......... ٤٥
الروس يعلمون.......... ٥٢
قبل يوم واحد.......... ٥٢
أول اشتباك.......... ٥٣
توقعات وردود أفعال ٥٥
صواريخ لم تقتل أحدا.......... ٥٦
طبيعة الهجوم الفعلي ٥٧

الجزء الثاني: السباق إلى بغداد - ٢ .... ٥٩

مقدمة المترجم.......... ٦٠
معارك الناصرية.......... ٦٢
حرب العصابات.......... ٦٣
الطائرة البيلاروسية.......... ٦٤
نصائح روسية ٦٥

أزمة القيادة العراقية ٦٦
عنف في البصرة ٧٣
أسلحة من إيران ٧٤
المعارك البريطانية ٧٨
آراء ٨٠
الدفاع عن بغداد ٨١
تولّي قصي الزمام ٨٣
ما فعله قصي ٨٥
اتصالات ٨٧
فوضى ٨٩
معركة المطار ٩٠
أين توجهت ؟ ٩٤
اعتذار أميركي ٩٦
الدخول الى بغداد ٩٨
قصف مطعم الساعة ١٠١
شائعات ١٠٣
الظهور الأخير لصدام ١٠٧
القتال الأخير ١١٠
الجزء الثالث: الحرب الحقيقية تبدأ........ ١١٢
مقدمة المترجم: ١١٣
عملية ٢٦ آذار ١١٥
التصدي لتركيا ١١٨
التزامات كردية مع مخاوف ١٢٠
المخاوف المشتركة ١٢٢
إشاعات ونشاط استخباري ١٢٤
معركة ضد أنصار الإسلام ١٢٥
ايران وسوريا والسعودية ١٢٧
التعاون السوري الإيراني ١٢٨
امتداد للموقف الإيراني ١٢٩
متطوعون وإرهابيون ١٣١
الدعم السوري ١٣٣
شيعة العراق ١٣٤
مجيد الخوئي في النجف ١٣٥
إحراج السيستاني ١٣٦
الأكراد والأميركان ١٤٠
السوريون ١٤٢
معدات الجيش بيد الأكراد ١٤٥

الاستخبارات السورية..... ١٤٦
التهديد الأميركي لسوريا..... ١٤٩
سوريا تسليم هاربين..... ١٥٠
تدريب العراقيين بدأ ثانية..... ١٥٣
تمرّد يطال الأميركيين والعراقيين..... ١٥٤
السؤال الكبير..... ١٥٧
الحقيقة..... ١٥٩
تحسن التدريب..... ١٦٢
مشاكل جديدة..... ١٦٣
خمس سنوات ضاعت..... ١٦٧
خطة كارنر..... ١٧٠
قرار حل الجيش العراقي..... ١٧١
آراء بشأن حل الجيش..... ١٧٢
التناقض الكبير..... ١٧٤
التمرد (المقاومة)..... ١٧٦
مخاوف ومشكلات..... ١٧٨
قضية التدريب..... ١٨٠
التحديات..... ١٨٢
اللغة..... ١٨٤
ديفيد بتريوس..... ١٩٠

هذا الكتاب الالكتروني يمثل سلسة حلقات ترجمها موقع الناس لفصول من كتاب " التاريخ السري لحرب العراق".

الجزء الاول: السباق

إلى بغداد - ١

مقدمة المترجم

يوسف بودانسكي ليس كاتبا عاديا، فقد تولى رئاسة مجموعة العمل التي شكلها الكونغرس للبحث في الإرهاب والحروب غير التقليدية لأكثر من عقد من السنين ، فتوفرت له ما لم تتوفر لغيره من الباحثين من معلومات سرية. عمل أمداً طويلاً رئيساً للبحوث في معهد الدراسات الإستراتيجية الدولية ؛ ومحررا أقدم في مجموعة ناشري الدفاع والشؤون الخارجية ؛وأستاذا زائرا في مدرسة الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جون هوبكنز، ومستشارا أقدم لوزارتي الدفاع والخارجية الاميركيتين، وله عدة كتب رائجة في سوق المبيعات مثل كتابه عن ابن لادن "الرجل الذي أعلن الحرب على أميركا".
إن الفصل السابع الذي نبدأ به من كتابه عن حرب العراق يقع تحت عنوان: السباق الى بغداد. وهذا العنوان يشير الى ما جرى حقا في الايام القليلة قبل اعلان الحرب وعند قيامها سواء في غرف العمليات في واشنطن او على ارض العمليات العسكرية. إننا مازلنا ندفع ثمنا غاليا بسبب نتائج هذه الحرب التي ربحها الاميركان بسهولة ظاهرة نظرا لميزان القوى العسكري غير المتكافئ ، الا انهم سرعان ما خسروها سياسيا بسبب سلسلة من الأخطاء والجرائم.
إن كتاب بودانسكي مليء بالاسرار والملاحظات المهمة الا انه كأي باحث اميركي عمل في مواقع متقدمة لا يخلو من توجيه رسائل مع اعادة توجيه الاهتمام الى وقائع أخطأ فيها الاميركان بسبب عنتهم وجهلهم وليس بسبب اي شيء آخر.

المترجم – موقع الناس

معلومة طازجة من العراق مثلما يحدث في أفلام الإثارة والرعب دخل مدير CIA مكتب وزير الدفاع في البنتاغون حاملاً معه مادة استخبارية طازجة وصلت للتو. بعد مشاورات قصيرة واتصال تلفوني مع المكتب البيضاوي في البيت الأبيض اندفع المسؤولان الى البيت الأبيض للإنضمام الى اجتماع طارئ مع الرئيس الذي كان بالإنتظار. كانت إحدى النتائج المباشرة لهذا الإجتماع هي تغيير الخطط الطارئة المعدة لافتتاح الحرب مع العراق في الدقائق الأخيرة ، وسرعان ما غيرت وجهات سير طائرات الشبح وصواريخ كروزلشن ضربة حاسمة Decapitating'على بغداد في – افتتاحية شجاعة أثبتت في النهاية أنها فاشلة... ولكن ما الذي حدث بالضبط يوم ١٩آذار/مارس ٢٠٠٣.

ذهب الرئيس بوش الى غرفة الموقف ليتلقى موجزاً بآخر مستجدات خطط الحرب – المعروفة بـ "خطة عمليات OPLAN ٧١٠٠٣ " وتشمل جميع الخطط الرئيسة والفرعية التي ستنفذ حال دخول U.S؛ الحرب مع العراق. كانت هذه مجرد تغطية شكلية وواهية للحرب الحقيقية– الدائرة فعلاً وغير المعلنة والتي لا يعترف بها أحد- ولكن المعدة للعراق التي بدأت منذ أسبوعين من الآن. في حوالي الساعة ١٠:٠٠ صباحاً صادق بوش على خطة العمليات آنفة الذكر ؛ وأمر بوضعها موضع التنفيذ.ستظل تلك الخطة سالمة (دون تغيير) لمدة ست ساعات فقط بعد.[قال ابو الفكر الاستراتيجي الالماني فون مولتكة الكبيرعن فن الحرب: تتغير خطط العمليات فور انطلاق نيران القتال!].

فقبيل الثالثة مساءً بقليل (١١:٠٠مساءً حسب توقيت بغداد) توقف سير برامج عمل مدير الـ CIA؛ جورج تينيت بوصول معلومات طازجة من بغداد. فقد حدد مصدر استخباري هناك ومنذ الآن موقع الهنكر (قاعة واسعة ومسقوفة وتستخدم لأغراض شتى كوكر للطائرات أو رحبة للدبابات..الخ) الذي يفترض أن يقضي فيه صدام وولداه تلك الليلة ؛ ويقع هذا الهنكر في مجمع سكني في مزرعة الدورة [العائدة لزوجة صدام أو أحد أفراد عائلته].عرف المصدر بالموثوقية التامة ؛كما سبق وأن تم تفحص المعلومات التي جاء بها هذا المصدر وثبتت صحتها، بعد مقارنتها بمعلومات جاءت أو طلبت من مصادر أخرى للتأكد – بينها وبشكل خاص تلك المعطيات التي جمعتها مصادر أميركية أخرى بوسائل الكترونية ، استنتج جورج تينيت أن هذا الإنذار الإستخباري جدير بأخذه بالحسبان.اندفع تينيت الى البنتاغون في الساعة ٣:٣٠ ؛ودخل للتو مكتب وزير الدفاع رامسفيلد الذي كان يناقش الحرب الجوية الوشيكة مع وكيل الوزارة بول وولفتز. كان موعد الصفحة الإفتتاحية للحرب الجوية- اي ساعة اندلاع الحرب - قد تقرر في الليلة التالية [ليلة ٢٠آذار/مارت]. والأن بعد أن قدم جورج تينيت آخر المواد الإستخبارية القادمة من بغداد بإمكانية إنهاء الحرب بـ "ضربة قاضية وحيدة" أي بقتل صدام وأقرب خلصائه قبل بدء المعارك الكبرى ، أقر رامسفيلد ذلك ؛ فاتصل جورج تينيت بالبيت الأبيض مقترحاً اجتماعاً طارئاً مع الرئيس.

حوالي الساعة ٤ مساءً دخل رامسفيلد وتينيت المكتب البيضاوي وأبلغا بوش بأن CIA؛ ثبتت مكان مبيت صدام هذه الليلة وأن البنتاغون قادر على شن ضربة ماحقة ، وهم بحاجة فقط

لمصادقة الرئيس لتنفيذ ذلك. لم يكن هذا بالطلب السهل ؛ إذ يعني ذلك تغيير مسار وتوقيتات الكثير من الترتيبات ولاسيما خطة OPLAN١٠٠٣V ؛- التي أعدت تفاصيلها بعناية فائقة ؛ وقضت القيادة المركزية (الوسطى) في ترتيبها أشهراً. أستدعى بوش أعضاءً آخرين من مجموعة الأمن الوطني – كنائب الرئيس شيني ؛ ووزير الخارجية باول، ورئيس أركان البيت الأبيض أندرو كارد جنيور ، وجنرال الجو ريشارد مايرز رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة. ثم طلب من تينيت ورامسفيلد إعادة شرح مقترحهم.شارك الجنرال تومي فرانكس في الإجتماع عبر شبكة فيديو أمينة من مقره، ثم بدأت مناقشة حول المضامين [والنتائج] السياسية والقانونية لشن ضربة ماحقة.

الصفحة الافتتاحية

وبحلول الـ ٦:٣٠ (١٨:٣٠) مساءً ؛ وحال تأكيد العسكريين قدرتهم على تعديل التوقيتات وبدء الحرب وفق الترتيب الجديد وقع بوش أمر شن الضربة مخولاً بها إجراء الترتيبات الضرورية للضربة الفورية. انطلقت طائرتا شبح مسلحة بقنبلتين زنة ٢٠٠٠ رطل من قاعدة "العيديد" في قطر.وأدخلت معطيات الأهداف الجديدة على نحو ٤٠ صاروخ توما هوك كانت محملة على عدد من السفن الحربية والغواصات.بينما استمرت المناقشة في المكتب البيضاوي حول تنفيذ الخطط الجديدة آخذين بالحسبان الوقت النهائي deadline؛ لبدء الضربات الذي حدده جنرال تومي فرانكس بالساعة ٧:١٥مساءً. وفي الساعة ٧:١٢؛مساءً أصدر بوش الأمر بشن الضربة Let,s go؛ وبعد دقائق دخلت طائرتا الشبح -F١١٧

الأجواء العراقية دون أن يرصدها أحد واتجهت نحو بغداد. بعد الـ ٩ مساءً ؛ افاد جاسوس لـ CIA؛ في الموقع بوجود صدام في الملجأ. وفي ٩:٣٠مساءً -٥:٣٠ توقيت بغداد – ألقت طائرتا الشبح قنابلهما على المبنى الرئيس لمزرعة الدورة. تلاها وبعد دقائق تساقط نحو ٤٠ صاروخ كروزعلى كامل المنطقة وقال بوش في خطاب متلفز أذيع أواخر تلك الليلة: "بدأت قوات الائتلاف قصف أهداف عسكرية انتخبت لأهميتها في إضعاف قدرات صدام لخوض الحرب" مضيفاً "بدأنا الصفحات الإفتتاحية لحملة واسعة ومنتظمة".

في بغداد كانت المفاجأة كاملة. واستغرق الأمر نصف ساعة تقريباً – أي حتى ٦:٠٠ صباحاً حسب توقيت بغداد الـ ١٠؛مساء توقيت واشنطن – [كي يستوعب النظام ماحدث و] لتنطلق بعدها صفارات الإنذار مع موجة القصف الجوي الثقيل الثاني على بغداد وتكريت. انقطع بث راديو بغداد. بعد ذلك بقليل توالت غارات قاصفات -٥٢B؛من بريطانيا ومن مختلف القاصفات الأخرى من قواعد في الخليج ومن على حاملات طائرات لضرب بضعة أهداف اضافية أخرى. جرى القصف على شكل ثلاث موجات ملفتة للنظر لابعاد الأنظارعن - الغارة الكبرى على مزرعة الدورة –و/أو الهدف أو المهمة الحقيقية .مرت قاصفات -٥٢B؛عبر أجواء اسرائيل وصولاً الى العراق من الغرب.عادت اذاعة بغداد للبث في الساعة ٦:٣٠ صباحاً توقيت بغداد (١٠:٣٠؛مساءً بتوقيت واشنطن) - رغم تواصل القصف.قرأ المذيع رسالة موجزة "يا أبناء العراق العظيم ؛أبناء القائد الكبير صدام حسين المنتصر بإذن الله....المجد للرجال الشجعان ؛ أسود عراق الأمة ؛عراق

صدام حسين ؛القائد البطل المنتصر وعنوان الجهاد....المجد لكم ؛يا أبناء القوات المسلحة العظيمة والبطلة ؛ وياجنود القائد المنقذ صدام حسين..".

في ٢٠آذار/مارس قوطع البثان الإذاعي والتلفزيوني مرات عدة لتوجيه نداءات جديدة الى العسكريين للقتال لأجل صدام حسين.وبعد ساعات قليلة من الضربة ظهر صدام حسين بصورة المتحدي الشجاع.كان أشعث الشعر وقد خطت بدايات الشيب شاربيه (لعله لم يصبغهما) واضعاً نظارة قراءة واسعة على عينيه (عوضاً عن العدسات اللاصقة) . وتلا خطابه من ورقة مكتوبة دون مواجهة الكاميرا.أكدت تلك الفروقات الملحوظة في مظهر صدام فكرة التعجل وارتجال الخطاب - كرد فعل سريع على الضربة الفاشلة لتصفيته - ولإقناع العراقيين بأنه مازال حياً ويسيطر على الأمور.لقد دعا كل العراقيين للقتال ومنهياً خطابه بالدعوة الى الجهاد باسم جميع القضايا [المبدئية]:" عاش العراق؛عاش الجهاد وعاشت فلسطين". ورغم ذلك ظلت (مصادر استخبارية) ومسؤولون كبار في واشنطن ولندن يلمحون لعدة ايام لاحقة بإمكانية موت أو أصابة صدام بجروح في "الضربة الماحقة" ، أما صناع القرار فلم يأسرهم هذا الوهم. لقد أخطأت الإطلاقة الفضية هدفها. وأكثر من ذلك فقد تقرر تأجيل تطبيق منهج (الصدمة والرعب shock and awe‘) والضربات الجوية والصاروخية المكثفة لحين زوال معظم تأثير المباغتة لبغداد التي كانت بانتظار المزيد من الأعمال العدائية.

ظلوا مصرين على الخطأ

استمرت دوائر استخبارات U.S؛بتسلم فيض من المعطيات. وأفاد جاسوس لـ CIA؛ كان قريباً من أو خارج مبنى مزرعة الدورة: بأن صدام وولديه كانوا بـ"التأكيد" داخل إحدى بنايات مزرعة الدورة الثلاث وقت الضربة.وقد أرسل هذا العميل الكثير من التقارير من موقع عمال الإنقاذ الذين واصلوا الحفر بسرعة جنونية في الأنقاض [وكأنهم يبحثون عن شيء محدد] وقال مجدداً أن صدام جريح. كما التقطت مراصد تنصت في U.S؛مكالمات تلفونية هستيرية كثيرة بطلب عجلات الإسعاف والخدمات الطبية والخدمات الطارئة الأخرى.أكدت التقارير الأولية التي وصلت CIA؛من وكلاء زعموا أنهم كانوا في الموقع وقت الضربة أن صدام حسين أما قتل أو نقل على نقالة ووجهه مغطى بقناع كبير للأوكسجين. وحتى بعد ظهور صدام واصلت مصادر CIA؛ التأكيد على أن "طبلتي أذني صدام" قد تمزقتا بفعل الإنفجار؛ وانه "يعاني تأثير الصدمة" فهو "ظل شارد الذهن...وفي حالة ذهول". بعد ظهور صدام التلفزيوني ادعى رسميو CIA أنه تسجيل سابق. كما واصل رسميو U.S؛ و U.K ولعدة أيام تأكيد موت صدام أو إصابته بجروح في الضربة الجوية.

الكرملين لم يصدق

وعلى العكس من ذلك لم يصدق الكرملين أية أوهام قيلت عن نتائج الضربة الأميركية.وقد أشارت خلاصة للإستخبارات الروسية GRU؛يوم ٢٠ آذار/مارت عن تلك النتائج أرسلت الى الكرملين جاء

فيها "وفقاً لمعلومات وردت من بغداد لم تحقق الضربة الموجهة للقيادة العراقية أهدافها.فصدام حسين وجميع المهمين من أعضاء وزارته أحياء وقد توزعوا على مواقع مختلفة". وتوقعت GRU؛أن تُفعّل القيادة العراقية سياقات عمل الطوارئ ومضيفة "من المرجح أن القيادتين السياسية والعسكرية قد نُظمتا وفق قاعدة محددة 'شبكة network' المسؤولين " ومضيفة "بأن عناصر هاتين القيادتين يتنقلون باستمرار عبر شبكة ملاجئ وغيرها من المقرات الأمينة ومقتصرين في اتصالاتهم على الخطوط الأمينة فقط ولن يتواجد في أي وقت معين أكثر من عنصرين مهمين في موقع واحد". وستظل شبكة الحماية هذه فعالة حتى بعد سقوط بغداد.

الحقيقة: تضليل!

توالت التقارير ومن مصادر استخبارية عالية في ما بعد التأكيد بعدم وجود صدام وولديه في أية مواقع قريبة من مزرعة الدورة وقت الضربة.وقد أكد لنا مسؤول استخباراتي كبير قائلاً: "ساد شعور عام بين أجهزة استخبارات U.S بأن صدام ما زال حياً، وما قيل وأذيع خلاف ذلك تمنيات وأوهام".في الحقيقة لم تعثر زمر الجيش الأميركي التي كلفت بالبحث في موقع الضربة على أي شيء يؤكد وجود صدام. وقد صرح رئيس الزمرة العقيد (تيم ماديري) لشبكة CBS: "لم يزد ما رأته زمر الحفر في الأساس سوى عدة حفر كبيرة، ولم تجد أية أنفاق أو مبانٍ تحت الأرض، ولا جثثا ". مضيفاً بأن من اختبؤوا في المبنى الرئيس في الدورة قد "سلموا" من الضربة.ولكن ظل هناك الكثير عن الحادث: فقد أكد بعض

كبارالمعارضة العراقية الموثوقين: "مقتل خمسة مسؤولين عراقيين كبار كانوا بانتظار صدام حسين لاجتماع معد مسبقاً ". وأكدت تلك المصادر عدم "وصول لا صدام ولا أي من ولديه". كانت هذه نقطة مهمة ولكنها لم تحظ بانتباه كاف أبان الفوضى التي سادت بعد الضربة المكثفة. والحال تبين أن عدم حضور صدام في اللحظة الأخيرة لا يعني عدم صحة أوعدم دقة المعطيات التي أرسلت الى CIA، بل وتؤكد أن هذه المعطيات قد جرى ايصالها عمدا أي أنها (زرعت) عن عمد disinformation لتضليل وإرباك واشنطن. وما كان لحقيقة مقتل مسؤولين عراقيين أن تعني شيئاً لمحللي استخبارات U.S؛ لو تذكرنا قسوة صدام وتكرار تصفياته لكبار مساعديه طوال عقود من حكمه ؛ وما كان صدام سيتأثر قليلاً أو كثيراً ، أو يأبه للتضحية بكبار مسؤوليه كطعم أو لخدع خصومه أو ليؤكد مرة أخرى نجاحه في تضليل أعدائه.قاد هذا الإدراك لبروز مناقشة هامة بشأن مصداقية الإستخبارت الخام Raw (المعلومات الخام التي لم تحلل او تدرس لاثبات صدقيتها بعد) في صياغة سياسات واستراتيجيات U.S تجاه العراق.

المخادعة

أكد مسؤول استخباراتي رفيع في عمان في نيسان/أبريل ومعني بالعراق لفترة طويلة أن مصادره داخل بغداد أكدت أنه وقبل يومين من الضربة الجوية انتقل صدام الى أحد المخابئ غيرالمعروفة حتى الى أي من عناصر أقرب حلقات القيادة اليه. ومنذ ذلك الوقت واصلت مصادر بغداد التأكيد أن صدام لم يلتق

أو حتى تكلم مع أي مسؤول عراقي كبير مباشرة أو تلفونياً. وحتى ٣ نيسان/أبريل واصل صدام إرسال أوامره كتابة أو على كاسيتات أو فيديو عبر قلة من السعاة الموثوقين. تعتقد مصادر بغداد أن قصي كان الوحيد الذي يعرف بالضبط أين يوجد صدام في أية لحظة بعينها.

جاءت نتفة المعلومة التي أثارت أو عجلت بشن ضربة ٢٠ آذار/مارس الجوية الماحقة وقدمت موعد الحرب من جاسوس واحد من قلب بغداد ، وكان قد تطوع من تلقاء نفسه Walk-in وحديث عهد نسبياً. فمنذ أوائل عام ٢٠٠٣م نظمت U.S وأدامت مجموعة صغيرة مؤلفة من عناصر من CIA وديلتا فورس [قوة ديلتا وهي قوات خاصة في غاية السرية] أما داخل أو حول بغداد مباشرة - للبحث ؛ وبالنص الحرفي للاستخبارات الأميركية عن طرق (لاختراق الحلقة الداخلية لصدام) . وفي عشية الحرب إتصل مسؤول رسمي عراقي رفيع بـ CIA وادعى أن موقعه يؤهله معرفة مواعيد وأماكن وجود (المخابئ) التي يستخدمها صدام حسين كل ليلة ، وادعى هذا المسؤول لراعيه (موجهه handler؛) من CIA أنه وازن بين مخاطر كشف صدام لخيانته من جهة وبين مخاطر المحاكمة التي سيتعرض لها على أيدي عساكر U.S بعد وصولهم بغداد فآثر تجربة حظه مع الأميركان، وسلمه بعدها الكثير من المعلومات المهمة و المثيرة عن أعمال الحلقة المقربة لصدام. بعدها وبوقت قصير أخبر راعيه عن خطط صدام و ولديه ليلة ١٩-٢٠ آذار/مارت. وقتها كان الكثير مما أدلى به العميل الجديد من معلومات قد فحصت وقورنت مع مصادر مستقلة، وكانت هي الأخرى نتيجة وبفعل إنجازات كبيرة لزمرة صغيرة من قوة دلتا

نجحت باختراق مركز شبكة fiber-optic كيبل للإتصالات في بغداد. و بمراقبة هذه الشبكة تمكنت U.S من التقاط العديد من المكالمات التي أكدت صحة معلومات الجاسوس العراقي (تعتقد CIA أن لم يكن بوسعه معرفة مراقبتنا لكيبل الإتصالات ذاك) أما أمر أن عمل هذا الجاسوس والمكالمات التي روقبت كانا جزءاً من عملية مخادعة متقنة فلم يرد على بال أحد ولا حتى الـ CIA.

كان لتداعيات وأحداث مابعد خمود وزوال آثار الضربة الجوية الماحقة أن تثير سيلاً من النذر والتنبيهات في واشنطن. فقد ألقي القبض فوراً على ثلاثة عملاء عراقيين ساعدوا CIA في العملية وأعدموا. لقد أطلقت عناصر من المخابرات النارعلى إثنين منهم وقطعوا لسان الثالث وتركوه ينزف حتى الموت. كان لسرعة وكفاءة شبكات مكافحة التجسس العراقية أن تقارن مع الحرية والأمان اللتين تمتع بهما عناصر CIA والقوات الخاصة (دلتا) طوال الشهور الماضية. وما لم تحدد CIA سببا واضحا ومقنعا للإعتقال السريع والمفاجئ لعملائها العراقيين الثلاثة فكان عليها الإفتراض أن السلطات العراقية كانت قد آثرت عدم اعتقال الأميركيين الناشطين في العراق [ماداموا تحت الرقابة والسيطرة].وبكلمة أخرى فإن معظم ما جمع من استخبارات تعوزه الدقة أو حتى كأنه من زرع مؤسسات الأمن والمخابرات العراقية وعن عمد ولغاية محددة مسبقاً ومنذ البداية.

خلاصة القول عوملت نتائج عمل شبكات التجسس الأميركية في العراق بثقة ومصداقية عاليتين؛كما لم يفكر أحد بالحاجة لتغيير استنتاجات الإستخبارات التي وضعت استناداً للمعطيات [المهلهلة] التي جاءت من العراق أوحتى أعيد النظر فيها أوأبدلت.

وهكذا ذهبت إدارة بوش للحرب وهي واثقة من صحة قراءتها للعراق !

نشاط استخباري سابق

مع بدء القتال كانت U.S منهمكة ومنذ أمد بعيد بنشاط استخباري شامل ومحموم لتجنيد و افساد ذمم عدد من القادة العراقيين.سعت دوائر أستخبارات U.S؛لاستغلال أية فرص تسنح لها بملاقاة كبار المسؤولين والضباط العراقيين مسلحة بما تلقته سابقاً وما عززته وتعزز قوته وباستمرار قناعات البنتاغون الراسخة من جهة ولدى أصدقائها في المعارضة العراقية من جهة أخرى بوجود وتنامي معارضة قوية وواسعة لصدام بين صفوف الضباط.وكانت هناك أيضاً قناعات في واشنطن بأنه وبسبب اضطهاد صدام لقادته العسكريين وما تعرضوا له من ظلم فسيعملون على إسقاطه أو المساهمة في ذلك.وفي أواخر ٢٠٠٢ إقتنع رسميون كبار في البنتاغون ؛وبشكل خاص رامسفيلد و مساعديه المدنيين المقربين بأن معارضة كبار القادة العسكريين العراقيين وصلت حد العصيان إن توفرت لهم فرصة مناسبة - فرصة كان الغزو الأميركي سيوفرها.

تعززت دوافع دوائر الإستخبارات هذه باعتبارات عسكرية. وكانت إحدى سبل العلاج المناسبة لكل الأمراض والمشاكل ؛ ما عرف بـ " combat multiplier القتال المتعدد "؛ أو المضاعف وهي احدى الوصفات الناجعة ؛والمصممة لتمكين U.S؛من أخذ العراق بأقل مايمكن من القطعات مما سيقنع الجيش العراقي - أي كبار

ضباطه - بالبقاء بعيداً عن الحرب !؟. في مطلع ٢٠٠٣ بدأت U.S حملة اتصالات جديدة تهدف بمجملها لاقناع أكبر عدد ممكن من أعضاء الحلقة الداخلية لصدام للبقاء بعيداً عن الحرب وشملت الحملة جهود عناصر من القوات الخاصة و CIA برشوة عدد من كبار الضباط بملايين الدولارات لكل منهم للإمتناع وتشكيلاتهم عن التصدي لقوات U.S و U.K.

كانت جهود وعلاقات الأميركان السابقة بكبار العسكريين العراقيين وكذلك مع مختلف مجموعات المعارضة قد سهلت الطريق لمعظم المعنيين الأميركان بالاتصال بمعظم أعضائها! ولكن وبعد جهود مضنية في أحسن الأحوال ؛وبحلول عام ٢٠٠٢؛ تركزت تلك الجهود وعلى أحسن تقدير عند محاولة تفسير وفهم أحداث ١٩٩٦.فقد أدعى إياد علاوي في عمان وهو رئيس حركة الوفاق ؛والذي كان يمول منذ زمن من CIA قدرته على تدبير إنقلاب عسكري ضد صدام.وادعى علاوي أيضاً أنه يقود شبكة [حركة] من ضباط عراقيين مازالوا في الخدمة حالياً وآخرين متقاعدين و بعض المسؤولين البعثيين ، وتدعى حركته هذه بـ (الوفاق) - والتي يسعى الآن لتفعيلها ضد صدام. فشلت المحاولة فشلاً ذريعاً وتولت المخابرات العراقية اعدام (ذبح) العديد من الضباط العراقيين وعوائلهم. كان أحمد الجلبي رئيس المؤتمر الوطني – المدعوم من قبل CIA؛هو الأخر!! - قد حذر بأن عملاء صدام اخترقوا مؤامرة الوفاق وأن مصيرها الفشل الأكيد.لم تغفر CIA وعناصر أخرى في واشنطن للجلبي أنه كان محقاً في تحذيراته.وما تلى ذلك هو الامتناع طوال عهد الرئيس كلنتون عن تدبير عمليات سرية داخل العراق والى حين تحسن قدرات CIA؛فيه.

نقص في الاستخبارات

عندما تسلم بوش الإبن الرئاسة وجدت دوائر إستخبارات U.S أن اعتمادها يتزايد على إسرائيل والأردن لامتلاكهما مصادر استخبارات بشرية مكثفة داخل العراق. وفي أوائل ٢٠٠١؛حدث تصادم قوي مع العراق وتردى الموقف سريعاً فأصبح [العراق]من بين الأهداف الرئيسة لإدارة بوش الوليدة ، وبالتالي اندفعت CIA بقوة لتحسين وتطوير أدائها في القدرات والمصادر. كان لهذا التعجيل ، ولغياب أو للنقص الشديد في المهارات المتميزة في (الإستخبارات البشرية) تأثير مباشر على نوعية ومصداقية المصادر التي جندت من قبل CIA. قال د. ريشارد سيل من وكالة أنباء UPI إن أحد مسؤولي إدارة بوش أبلغه بأن CIA عملت لأشهر لاصطياد بعض (dissident in -country) المنشقين/الهاربين/ اللاجئين في U.S. وفي الحقيقة لعبت المعارضة العراقية المشتتة والمتهالكة دوراً في رسم الكثير من مسارات وانطباعات CIA عن حقيقة الأوضاع في العراق، كما زودتها بأسماء الكثيرين ممن تتصل بهم من كبار جنرالات العراق. كان الهدف الأول والرئيس لأي فصيل معارض هو: تفعيل أجندتها وضمان مكاسبها في واشنطن - بنشر معلومات ملفقة كثيرة تدعم أنشطتها تارة وبالتغطية على فشلها وأخطائها تارة أخرى – لا بتأكيد وخدمة أهداف واشنطن أوتزويدها بمعرفة شاملة وبفهم واضح لما يدور في العراق. وبحلول عام ٢٠٠٢ اعتاد الكثير من قادة المعارضة المعروفين على إسماع واشنطن ما يعتقدون أنها تريد سماعه. لكن وبغياب مؤسسة استخبارات محلية وقادرة داخل العراق ومع العداء المتأصل في CIA بعدم ثقتها بما توفره لها اسرائيل من

استخبارات (لخشية من مؤيدي العرب فيها Arabists من تلفيقات اسرائيل بما يخدم سياساتها وأهدافها) لم يتيسر لإدارة بوش مصدر معرفي مستقل وموثوق بشأن العراق والقادر على تفحص سيول الدعاوى الواردة من فصائل المعارضة العراقية وعبر اتصالاتهم داخل العراق.

تقديرات المعارضة

أواخر عام ٢٠٠٢ كثفت U.S جهودها واستعداداتها لصدام واسع [حرب] مع العراق وأمرت CIA والقوات الخاصة بدخول العراق ، فسارعت فصائل المعارضة العراقية بتقديم العديد من الآراء والتوصيات وعرض الكثير من قادتها قدرتهم على السيطرة على بعض القطعات العراقية قبل أو خلال الصفحات الأولى للحرب.وقال الحسين (al-Hussein) من المؤتمر الوطني العراقي [لعله يقصد الشريف علي بن الحسين] " لن يدافع أحد عن النظام في العراق بما في ذلك العسكريون في الجيش النظامي والحرس الجمهوري ولا في الدوائر الأمنية وجميع السكان "، مضيفاً " فكل العراق قاسى سنوات طويلة من ظلم وجور نظام صدام حسين ؛ولن يقاتل ولا فرد عراقي واحد للدفاع عنه". وأصرت أغلبية قادة المعارضة والضباط السابقين على أن معظم القوات العراقية - بما فيها الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص - سوف لن يقاتل لأجل صدام. وقال [العميد الركن المتقاعد] ؛نجيب الصالحي "لا أعتقد أنهم سيقاتلون بضراوة لصدام وحتى أولئك المقربون منه - ونحن نعرفهم جيداً - ساخطون عدا بضع مئات من المعزولين عما يجري في العالم

الخارجي فسيقاتلون لليومين الأوليين فقط ". وأشار جميع اولئك الضباط السابقين والهاربين من العراق الى علاقاتهم المكثفة بزملائهم وبأصدقائهم السابقين داخل العراق كمصادر لمعرفتهم الفريدة والدقيقة وقدراتهم على تنفيذ خططهم ومشاريعهم.لقد طلبوا ونالوا ما أرادوا من أموال وفيرة Lavish وبسخاء من U.S؛ لتطوير وتوسيع اتصالاتهم مع مصادرهم في الداخل.

المخابرات العراقية

ركزت بغداد انتباهاً شديداً على تلك الأنشطة الحيوية. وكانت المخابرات العراقية تراقب وتتابع وبشدة جميع الإتصالات مع المسؤولين الغربيين عند زيارة هؤلاء لدول الجوارالعراقي ؛ و مراقبة ومتابعة أية مظاهر لثراء مفاجئ. مكنت هذه المراقبة والمتابعة المركزيتين بغداد وبسرعة من تحديد الجهد الأميركي المتصاعد لتحقيق اتصالات مع كبار الضباط. وبدءاً من أيلول/سبتمبر٢٠٠٢؛ بدأ عشرات إن لم يكن مئات - وخصوصاً من عناصر فدائيي صدام - باختراق وتخريب تلك الجهود المعادية. وبدأت عناصر المخابرات تلك التقرب والإحتكاك بالقادة والضباط العراقيين مدعين بأنهم من عناصر المعارضة المدعومة أميركياً.ثم يعرضون عليهم مبالغ كبيرة من المال في وقت اشتدت فيه الحاجة اليها لتوفير الطعام والدواء لأفراد عوائلهم ، كما عرضوا عليهم تسهيل حصولهم على اللجوء في الغرب مقابل الموافقة على التعاون مع U.S ؛و/أو الأمتناع عن القتال عند بدء الحرب. تلت ذلك عمليات إعدام علانية في المعسكرات والحاميات الرئيسة في وسط العراق لأي عراقي أظهر ولو أدنى أمارات الرضا بالتعاون مع

U.S. لقد تأكد تنفيذ ٣٥ عملية إعدام على الأقل خلال أول أسبوعين من أيلول/ سبتمبر هذا. لقد وجهت اجراءات مكافحة التجسس البالغة القسوة تلك ضربة قاصمة لجهود المعارضة التقليدية لاختراق المؤسسات العراقية.

واصلت دوائر الإستخبارات العراقية توسيع عمليات اختراقها وتسللها لمختلف الأشخاص و لفصائل المعارضة المتعاونة مع CIA بتفعيل الكثير ممن زرعتهم في الغرب. وعلى سبيل المثال سمح للكثير من الطلبة وطالبي اللجوء بالسفر مقابل تعاونهم مستقبلاً مع الإستخبارات العراقية عند ابلاغهم بذلك ؛مع تذكيرهم بأن من بقي من عوائل هؤلاء يعدون رهائن لدى النظام لضمان حسن تصرف المعنيين.ولتأكيد جدية التهديدات لمعارضي تخطيط المخابرات أعتقل أفراد عوائل أوائل رافضي التعاون ؛وعذبوا وأعدموا. ففهمت رسالة بغداد. وفي العديد من الحالات ، استغلت المخابرات الإتصالات التي قامت حديثاً بين الضباط الهاربين وأصدقائهم في العراق للضغط على هؤلاء المعارضين بالتعاون مع بغداد.أظهرت وثائق المخابرات التي ضبطت ؛بعد الحرب حجم تسلل وتخريب المخابرات العراقية لمثل هذه الأنشطة المعادية. وعلى سبيل المثال، ففي ٢٩ ت١/أكتوبر٢٠٠٢؛ ورد في مذكرة لا يشك بصحتها أبداً صادرة عن المديرية /١٤ (المسؤولة عن العمليات الخاصة في U.S) : أن "لدى CIA وما يعرف بالمعارضة خطة بإدخال "خونة" Quislings الى العراق من الشمال والجنوب لجمع المعلومات وانتظار مهام مستقبلية.سيكون مخبرنا أحدهم".وفي النهاية استخدم العراق شبكات عناصره الأمنية الواسعة كجواسيس أولاً ولزرع وإيصال المعلومات الكاذبة الى

U.S. سبب الدور /الواجب الأخير الكثير من الأذى البالغ والمتواصل لواشنطن.

ما التجمع؟

كان على رأس جهود المخابرات العراقية ما عرف بـ " التجمع al- Tajammua " أو "المجموعة the rouping" التي أعدت ونظمت وفقاً لتقاليد مؤسسات الإستخبارات السوفيتية – التي كانت ولربع قرن مصدر المعرفة والخبرات والدعم للإستخبارات العراقية – بخلق وإفساد وبالتالي تدمير بعض قوى المعارضة المحلية الحقيقية عن طريق خلق منظمات وحركات معادية وهمية والسيطرة عليها لمعرفة نواياها وتوجهاتها وتفويت الفرصة على دوائر الإستخبارات الخارجية.لقد فُصل أو أعد "التجمع" على غرار ما عرف بأم المخادعات – التي نظمتها الإستخبارات السوفيتية NKVDs في أوائل عشرينيات ١٩٢٠القرن الماضي وحققت نجاحاً هائلاً (راجع 'الملف التأريخي في الملحق ص-٥١٧) . في نهاية ٢٠٠٢ ومع توجه CIA لتشجيع كل من يستطيع [من عناصر المعارضة] القادرين على الإتصال ببعض أقربائه وأصدقائه في العراق لتحويلهم ضد صدام بدأ فجأة توافد المرسلين Emissaries من العراق الى أوربا الغربية والساعين للأتصال بـ CIA. ادعى هؤلاء أنهم يمثلون جماعة جديدة تطمح لتولي السلطة بعد الحرب وأن جميع منتسبيها عراقيون كبار مازالوا داخل العراق. كما أدعوا أن التجمع يضم وزراء وضباطا وشيوخ عشائر واساتذة جامعيين وشخصيات مهمة أخرى سنية وشيعية وفئات كردية وقد اتحدوا جميعاً في معاداة صدام وحزب

البعث وتعهدوا بإقامة حكومة تعددية موالية للغرب. وفي مقابل الدعم الأميركي قال الموفدون أن العناصر العسكرية في التنظيم ستسرح عناصر الحرس الجمهوري قبل أن يتسنى له التصدي للقوات الغازية، ثم وبعد الحرب مباشرة ستسلم جميع اسلحة الدمار الشامل الى السلطات الأميركية. جرت عدة اتصالات متقطعة لبضعة أشهر أخرى مع التجمع وفرت استخبارات مهمة لتأكيد وجود عناصر التجمع في مؤسسات الدولة العليا. لكن وفي الوقت نفسه رفض الموفدون كشف أسماء وهويات العناصرالمهمة لتنظيمهم مذكرين بأساليب القمع الرهيبة لأجهزة مكافحة التجسس وووجودها في كل مكان.

بحلول الشتاء كان للموفدين طلب واحد من عناصر ارتباطهم بـ CIA. فبعد تكثيف المخابرات العراقية لجهودها ضد أية أنشطة للمعارضة بما يفوق تمادي U.S في عدائها للعراق واجه قادة التجمع الكثير من المخاطر على حياتهم. كانوا خائفين بل مرعوبون من أنشطة عمليات مكافحة التجسس في المخابرات العراقية والتي ستؤدي الى سقوطهم وتدميرهم. لذلك بدأ موفدو المعارضة بالألحاح على عناصر ارتباطهم بـ CIA ؛بضرورة تأمين بعض التنسيق بينهم وبين ممثلي تنظيمات المعارضة الأخرى [في العراق] ليتسنى لهما معاً مساعدة بعض ممثلي المعارضة أولئك ، والأهم لتجنب إختراقهم من قبل أعدائهم الخطرين. حثت U.S مختلف فصائل المعارضة على التعاون ومساعدة التجمع حتى تدخل قواتها بغداد.

في بداية ٢٠٠٣ ؛ قدم "التجمع" والأشخاص العاملون معه خدمات مفيدة جداً بتسهيل وصول عناصر من القوات الخاصة و CIA؛والتعاون معهم في محيط بغداد الكبرى.كما قدموا حقاً مساعدات ضخمة وملاذات آمنة، إذ لم يقتل أويعتقل أي متسلل أميركي في تلك المرحلة. وقد نجح المتسللون الأميركان بنصب أجهزة اتصالات ومعدات استراتيجية أخرى مكنتهم من تحديد الأهداف الحيوية لحملة القصف المقبلة. وفي الوقت نفسه اطلع العراقيين على ما كان يفعله المتسللون الأميركان وما يسعون اليه وكانوا قادرين وفي العديد من الحالات على تحذيرهم من القيام بافعال وتحركات قد تعرضهم ومشاريعهم بجملتها للخطر. ونجح جواسيس U.S بتحديد موقع وجود صدام حسين وولديه ليلة ١٩-٢٠ آذار/مارت فسارعوا لإبلاغ العاملين الأميركان بذلك فأحدثوا نقلة وإنجازاً كبيرين بتغيير توقيت الصفحة الإفتتاحية للغزو.

لقاء غريب

وصل التعاون بين الأميركان والتجمع ذروته في شباط/فبراير ٢٠٠٣؛حين حقق التجمع لقاءً بين الجنرال المتقاعد أنتوني زيني[١] و"جنرالين عراقيين قريبين من صدام".سهل وزير دفاع اليونان يانوس باباندبوس تنظيم اللقاء والسماح لزيني ليوضح للعراقيين صحة وعزم U.S للتخلص من صدام. وكان يانوس بابندبوس

[١] جنرال زيني تولى قيادة القيادة الوسطى (المركزية) قبل تقاعده ؛واشتهر بعدائه بل وازدرائه للمعارضة العراقية التي اعتبرها مجموعة من المرتزقة العاطلين وبلا فائدة نهائياً.

مقتنعا بأن كبارالقادة العسكريين وحال تأكدهم من قوة وتصميم U.S فإنهم سيعملون على إقناع صدام بالتنحي أو يقوموا بانقلاب عسكري وبهذا يلغون الحاجة لنشوب حرب مدمرة. فجأة ألمح موفدوا "التجمع" بأن هذين الجنرالين ومع أنهما يرتبطان مع التجمع بشكل ما الاّ أنهما ليسا منه ولا يعرفان حتى بوجود التجمع. لذلك أوصوا بأن على جنرال زيني أن يكون متفائلاً وأكثر ليونة وأن "يشجع لا أن يهدد". لذا وحين التقى زيني الجنرالين العراقيين في أثينا حثهم على العمل معاً لمنع الحرب ، فإن تعذر ذلك طلب منهم زيني إيصال رسالته الى القيادة العليا العراقية لتبقى بعيداً عن الحرب وتحافظ على كيانها ووجودها. ولكن هذا الإنذار الأميركي المفترض أن يؤثر على العراقيين وعلى الحرب لم يسلم أخيراً. وبعد احتلال بغداد توقفت فجأة جميع الإتصالات مع موفدي التجمع. كما لم يتقدم أي من رجال التجمع للأميركان للمساهمة في إقامة حكومة مابعد الحرب في العراق ، كما لم يكن هناك أي ممثل للتجمع لتسليم أسلحة الدمار الشامل العراقية. وفي الحقيقة لم يكشف أي من أعضاء التجمع عن نفسه للسلطات أبداً. وبعبارة أخرى بدا من المؤكد بأن التجمع كان شيئاً كبيراً وجريئاً وناجحاً للغاية لعرقلة مساعي وخطط U.Sضد العراق أعدته المخابرات العراقية بالكامل وباتقان للعمل ضد الأميركان والذي لم يحقق للعراق معلومات ومعطيات كثيرة ومهمة عن أنشطة CIA؛ داخل وضد العراق وحسب بل وضلل رؤية ومشروعات استخبارات U.Sعن التحديات المحتملة لما بعد الحرب.

دور نزار الخزرجي

ولعل من بين إحدى النتائج والموضوعات الجانبية ذات العلاقة بفكرة أو تنظيم "التجميع" ترد قضية الجنرال نزار الخزرجي رئيس الأركان العامة العراقية الأسبق والذي فر من العراق في منتصف التسعينيات. ففي تلك الفترة ارتبط اسمه باستخدام الغازات السامة ضد الكرد أواخر الـ ١٩٨٠واحتلال الكويت ١٩٩٠ والقضاء بقسوة وحشية على الإنتفاضة الشيعية عام١٩٩١. وذكر حقاً أمر استدعاء الخزرجي للمثول أمام محكمة مجرمي الحرب الدولية.ولكن وفي أواخر الـ١٩٩٠كان الخزرجي يطوف بلدان أوربا – ثم استقر أخيرا في بلدة دانماركية صغيرة ونائية - كانت CIA تريد منه كلاعب رئيس في عراق ما بعد صدام متصورة أنه قادرعلى استثمار تأثيره المستمر في صفوف العسكريين لترصين نظام الحكم العسكري لما بعد صدام والذي سكون قريباً جداً وبقوة [وكما يفترض] من الأميركان. وافق الخزرجي على لعب هذا الدور، ففي حديث له مع جريدة الحياة في ك١/ديسمبر٢٠٠٢ قال الخزرجي: "أنا واثق بأن القطعات العراقية وحال دخولي العراق ستلتحق بي. وهناك أعداد كبيرة من الضباط والجنود المستعدين للعمل مع U.S لذا سنقاتل ونشق طريقنا الى بغداد". [٢] كان نزار يوصف

---

[٢]كانت هناك لجنة عسكرية للمعارضة ضمت عناصر من حركة الوفاق ومن خارجها كلفت بترشيح أسماء سبعة جنرالات عراقيين من السنة لإرسالها الى واشنطن ليصار الى اختيار أحدهم ليتولى الحكم بعد صدام. ولم يحدد وقتها أسلوب التغيير هل عن طريق انقلاب عسكري أو ثورة شعبية وعسكرية مزدوجة أوعن طريق اغتيال صدام حسين. فقد روجت أيامها الكثير من المشروعات. وصادف أن ألتقى أحد أعضاء

وبنظر العديد من خصومه بـ جنرال كرزاي الـ CIA – كديكتاتور ألعوبة ومنضبط ويوجه من واشنطن.

في عام ٢٠٠٢ وبتشجيع من CIA بدأ الخزرجي يعيد وينٌشط اتصالاته باصدقائه ومريديه من الضباط القدماء في العراق.وسرعان ما أبلغ عن وجود مجموعة سرية من كبار الضباط الشديدي الوطنية والعنودين جداً ضد صدام ، وأن المجموعة اختارته – أي الخزرجي - كوسيط موثوق بينها وبين واشنطن. أما ما تريده هذه المجموعة من الضباط العراقيين في الحقيقة فقد أبلغ الخزرجي الـ CIA في شتاء ٢٠٠٢-٣: بأنهم يريدون الكثير من الأموال والدعم السياسي ليسهل عليهم ترتيب وتسريع انقلابهم [العسكري] ضد صدام.وحين رفضت U.S إلزام نفسها باية تعهدات خوفاً من أن الإنقلاب الموعود في بغداد قد يؤدي الى وقوع الكثير من التصفيات والإغتيالات الأمر الذي منعت CIAقانونياً من دعمه.هنا بدأ الخزرجي يتحدث علانية ومحذراً من حرب رهيبة على العراق قد تشعل النار في هشيم المنطقة. و قال في لقاء له مع قناة الجزيرة في ١٩ك٢/يناير٢٠٠٣: "إذا اندلعت الحرب ونشب القتال ؛ فسيستخدم التحالف كل جهوده لضمان ولتحقيق نجاح سريع مع ضمان عدم وقوع أية

اللجنة العسكرية هذه بقريب أو صهر لجنرال نزار الخزرجي الذي أبلغ عضو اللجنة بأن موقف الجنرال نزار سيئ في العراق، وهو على ثقة أنه تحت مراقبة شديدة ولن يأمن الاعتقال أو ما هو أسوأ، فارتفع اسم نزار للترشيح بل وألغى حتى المقارنة بينه وبين اسماء سابقيه. ومن يدري لعل الجنرال نزار أو غيره قد يروي ذات يوم تفاصيل المشروع الأميركي وقصة اللجنة والثورة العسكرية وغيرها من المشاريع الأميركية.

خسائر في صفوفه. ستستخدم تلك القوات أفضل ما لديها من معدات. ومن المحتمل أن تلك المعدات ستدمر وتلوث بيئة ومستقبل أجيال العراق المقبلة وكما حدث في حربي الخليج وأفغانستان. وأكثر من ذلك فستمزق هذه الحرب وتقسم الشعب العراقي و تدمر بنياته التحتية وقواته المسلحة وستدخل في فوضى مدمرة، وهذا قد يقود بدوره الى حرب أهلية". وبدلاً عن حرب أميركية طالب الجنرال خزرجي تزويده بالمساعدات الضرورية لعودته الى العراق لقيادة ثورة عسكرية ضد صدام حسين وقال في ٢١شباط/فبراير٢٠٠٣: "أحس وكأنني أسد في قفص. يجب أن أكون في العراق لقيادة الشعب والعسكريين ضد صدام. أنا واثق من أن وجودي في العراق سيقنع العسكريين بتغيير اتجاه أسلحتهم ومدافعهم وسيشهرونها ضد صدام ". وتابع: "من الطبيعي جداً أن يتصدى الشعب لجيش الإحتلال الأميركي الذي سيقصف البنيات التحتية والقوات المسلحة وسيبقى [المحتل] طويلاً في العراق وسينصب حكومة عميلة، بينما ستسدد نفقات الحرب من نفط وثروات العراق".

وبغض النظر عن كل هذا التبجح والتظاهر بالشجاعة وتأكيد جنرال خزرجي استقلاليته فقد أبقى على اعتماده وتعاونه مع CIA.الا أن قضيته أمام المحكمة الدولية استمرت وتصاعدت. وفي أوائل ٢٠٠٣ حذرته (كوبنهاكن) أنه حال صدور مذكرة اعتقال دولية بحقه فسيسحب منه اللجوء الدنماركي وسيرحل الى المحكمة الدولية في (لاهاي) . وفي ١٧آذار/ مارت – أي عشية الحرب – اختفى الخزرجي من داره في الدانمارك فقد نقله أصدقاؤه في CIAالى الخليج العربي عبر عدة محطات أوربية. وحال

بدء العمليات العسكرية ظهر الخزرجي فجأة على رأس ما سماه مسؤولون عرب كبار بـ"مجموعة التفاوض" - شاركت فيها عناصر من CIA- لإجراء حوار مباشر مع قادة ميدانيين في القوات العراقية المسلحة لعدم مقاتلة قوات التحالف الأمرو- بريطاني. وأكثر من ذلك ووفقاً لمصادر في المعارضة العراقية: "لقد جرت هذه الإتصالات مع قادة عراقيين ميدانيين، وبإشراف CIA؛ وقوات خاصة لـ U.S في العراق لإقناع أعداد كبيرة من القوات العراقية بالقاء أسلحتهم، وربما حتى مشاركة عناصر من القوات العراقية الخاصة باعتقال صدام حسين حياً وتسليمه لقوات. U.S".

الخزرجي في العراق

في عشية الحرب دخل الجنرال الخزرجي ومجموعته العراق سراً لتفعيل وتسريع وساطاتهم مع نخبة من الجنرالات العراقيين.ادعى الخزرجي إقامته صلات مع القليل من كبار الضباط الذين تربطه بهم صلات قوية وقديمة. وقد أوصل عروض واشنطن للتنسيق والتعاون خلال وبعد الحرب. أوضح بعض كبار قادة المعارضة العراقية في بيروت أن الخزرجي طالب أصدقاءه بـ "السعي ومطالبة صدام لإظهار مواقف أكثر مرونة أزاء الوساطة المقترحة لتجنيب البلاد مخاطر الدمار مع ضمان سلامته ". وبالمقابل، أضافت المصادر، "وعد أولئك الجنرالات العراقيين بدور رئيس في مرحلة ما بعد الحرب ، وأنهم سيحتفظون بنفس الحظوة التي ينعمون بها حالياً ولهم خيار القيام بانقلاب عسكري ضد صدام لإنهاء الحرب". حين رفض القادة العراقيون الإلتزام بتنفيذ الإنقلاب العسكري، أو تقديم مساعدة فعالة لقوات الغزو

الأميركية عرض الجنرال خزرجي خطته الخاصة لتجنب الحرب.ووفقاً لتلك المصادر في بيروت شملت خطة الخزرجي: "توفير ملاذ آمن للرئيس صدام خارج البلاد بشرط عدم استخدام الحرس الجمهوري الأسلحة الكيمياوية لإفشال أي اتفاق بين قيادة الجيش وقوات U.S. ومع ذلك، وإذا أصر صدام على القتال حتى بعد التوصل الى إتفاق كهذا، على القادة العراقيين التأكيد على عدم مشاركة أعداد كبيرة من القطعات في القتال لغرض إضعاف جبهة صدام كثيراً وتسهيل مسألة التعامل مع القوات العراقية ككل. واصل الجنرال خزرجي إصراره طوال الوقت على دعم واشنطن له وأنها خولته تقديم هذه العروض والصفقات.

اتصالات الخزرجي ونتائجها

مع تصاعد القتال ، وسعت مجموعة الخزرجي إتصالاتها عبر أجهزة التلفون النقال واللاسلكي وحتى عبر سعاة وحاملي رسائل. وجرت معظم تلك الإتصالات عبر طرف ثالث كان يلتقي بعض أعضاء مجموعة الخزرجي في أماكن بعيدة. وفي ٢٤آذار/مارس أبلغ أحد كبار مسؤولي CIA الواشنطن بوست بـ "استمرار الإتصالات السرية مع القادة العراقيين بأمل ترتيب استسلام القطعات العراقية وفرار بعض الشخصيات الهامة والإمتناع عن استخدام الأسلحة الكيمياوية والبايولوجية وأخيراً إسقاط (صدام حسين) ". ومرة أخرى إتصل موفدو متحاوري العراق من العسكريين طالبين إظهار صدق وإخلاص U.S – بخطوات ستمكنهم من مواصلة الحوار دون إثارة شكوك المخابرات وأجهزة صدام الأمنية. لذا وايفاءً بذلك أوقفت U.S قصف مبنى وزارة الدفاع ، وأكدت

التقارير أن الضباط المتفاوضين مع الجنرال نزار الخزرجي كانوا يختبئون في تلك الوزارة. و كانت النتيجة هي تمكن القيادة العليا العراقية من إدامة الإتصال مع قطعاتها المقاتلة عبر ومعظم وقت الحرب.[في لعبة مخادعة عراقية ناجحة أخرى لـ U.S].

وكما حدث مع عناصر (التجمع) لم يظهر معظم عناصر ومجموعة الخزرجي بعد احتلال U.S لبغداد، وبقي [أي الجنرال خزرجي] أحد أكبر ألغاز الـ CIA؛ وجهدها الدؤوب لإفساد عناصر الحلقات القريبة لصدام.ولم يتضح بعد وبجلاء إخلاص وولاء [الجنرال خزرجي] الحقيقي. وبينما اتضح تماماً عدم ولائه لصلاته بـ CIA فهناك جدل طويل حول حقيقة الخزرجي، وهل هو طامع بالسلطة، أم أنه جنرال داهية حقق صفقات رائعة لترويج حساباته وأهدافه الخاصة ، أو أنه ذرائعي (واقعي يتعامل مع الممكن) توصل الى اتفاق مع صدام يضمن سلامته [أي الخزرجي] مقابل مساعدته في الحرب العراقية السرية ضد U.S.

الكرملين يراقب

شكل الكرملين الآن صورة كاملة لاغبار عليها للموقف في بغداد.لاحظت الإستخبارات العسكرية الروسية GRU في نشرة لها في ٢٠ آذار/مارس " شدة اخلاص ومعقولية وتحمل القيادة العراقية العليا مسؤولياتها مقارنة بما يقال عن فاعلية العمليات الأميركية السرية" ومضيفة " يتوقع الأميركان حدوث تحول سياسي كبير وجذري وأخباراً من العراق في الـ ٢٤ ساعة القادمة ". ويعتقد محللون أن محاولة انقلابية بدأتها CIA قبل عدة أشهر

هي السبب وراء هذا التوقع. ومع ذلك أفاد عملاء روس أن أنقلاباً كهذا أما قد كشف في الوقت المناسب أو كان ومن البداية تحت سيطرة دوائر الأمن العراقية. تأكدت هذه المعلومات بما لاح من مظاهر عدم الإرتياح التي سادت مركز قيادةCIA في قطر وكما لو أن سقوط صدام حسين كان سيتم قبيل عدة أيام ". وعلى العكس فقد أثبتت الوقائع أن قراءة وتحليل GRU,s؛ للموقف في العراق كانت صحيحة بل وبالغة الدقة جداً.

منطق فرض نفسه

وأخيراً فقد كانت المحصلة النهائية لهذه الإتصالات والعلاقات مع المعارضة العراقية، بما فيها غالبية من هربوا الى الغرب هي: بروز فهم مرتجل ومتسرع وغائم للموقف في العراق. وذلك لأن هذا التحليل الإستخباري كان يتماشى ويناسب المصالح السياسية للقدمات العليا في إدارة بوش، ما جعله شديد الإغراء للتطبيق. وكقاعدة لا يميل أو لا يريد السياسيون مناقضة أو تحدي أو حتى التشكيك بتحليل استخباري يؤكد سياسات تقرر الإلتزام بها. لذلك صيغت خطط العمليات الأميركية مع تأكيد على استخدام أدنى حد ممكن من اعداد وحجوم القطعات البرية، وكانت حالة الجيش العراقي عاملا رئيسا في إعداد وتبرير هذه القرارات السياسية بالأساس. وعن ذلك قال ريتشارد بيرل أحد أكثر مستشاري البنتاغون نفوذاً وتأثيرا وأبرزهم في دعم الحرب: "أنا لا أعتقد بأن علينا دحر جيش صدام وأرى ان جيش صدام سيدحر [سيخذل]صداماً".

هذا المنطق نفسه طبق على الحاجة الى منظومة شاملة للسيطرة على عراق ما بعد الحرب والقضاء على عمليات الفوضى والإرهاب والتخريب.إذ قادت المعارضة العراقية واشنطن للإعتقاد بأن العراق الجديد والمحرر سيكون شديد الإمتنان للقوات الأميركية ولن يشكل تهديداً أمنياً. "ستجابه قواتنا بفرح طاغ ومتفجر" هذا ما قاله وكيل وزير الدفاع بول وولفتز. وحتى مع تدفق التقارير من الإستخبارات وبعضها الآخر من القوات الخاصة الأميركية داخل العراق حول الإستعدادات الفعالة للجيش العراقي ، كان هناك رفض منظم للتخلي عن الفكرة [التي ترسخت في أذهان بعض كبار مسؤولي U.S] بوجود عوامل وقوى تدمير ذاتية ستؤدي لانهيار منظومات الجيش العراقي من الداخل. وقال ريتشارد بيرل في شباط/فبراير [٢٠٠٣] " قد تظهر هناك بعض جيوب للمقاومة ولكن فئة قليلة من العراقيين ستقاتل دفاعاً عن صدام" .

هذه القناعة القائلة بان الموقف في العراق سيتحكم في النهاية بخطط الحرب الأميركية أثرت في حجم وتأليف القطعات التي انفتحت في ترتيبات التعامل مع عراق ما بعد الحرب.وفي ١٣آذار/مارس أجمل كلاً من: رامسفيلد والجنرالان ريتشارد ميرزوبيتر بيس [رئيس هيئة الأركان ومعاونه ثم خليفته] تفكير إدارة بوش عن الحرب أمام مجموعة من كبار الضباط المتقاعدين ومجموعة من مفكرين استراتيجيين وآخرين من خبراء الإستخبارات. تحددت رؤية البنتاغون باستخدام حجم محدود من القوة بحدود ٧٠ ألف جندي تندفع بـ'حملة صاعقة Lightining drive' الى بغداد متخطية المدن العراقية الأخرى. سيتم تسهيل هذا السباق الى بغداد بحملة قصف "غير مألوفة

ولكن دقيقة لزرع الرعب والدمار" Shock and Awe‘-أي بتفتيت وربما القضاء على القيادة العراقية. وادعى رامسفيلد قائلاً: "يمكن الإطاحة بنظام بغيض– مكروه – دونما حاجة لشن حرب على البلاد كلها". وتوقع البنتاغون أن القوات العراقية ستترك صدام وأن شعب العراق سيثور ضد نظام البعث. وبهذه الطريقة أصر البنتاغون على أن الحرب ستنتهي سريعاً، بأسابيع وربما بأيام مع سفك القليل من الدماء الأميركية أو العراقية. أما الجنرال المتقاعد باري مككافري قائد فرقة المشاة الآلية /٢٤؛ في حرب الخليج ١٩٩١ والذي حضر إيجاز/١٣آذارهذا ، فقد حذر من تجاهل مخططي الحرب لـ ’كارثة سياسية/عسكرية إن ثبت خطل ما بنيت عليه خطط البنتاغون من افتراضات ، ومضيفاً "لقد اختاروا خوض المعركة بقوات برية وبقدرات غيركافية مالم تثبت صحة ودقة افتراضاتهم ".

وساطات

جرت وفي الوقت نفسه محاولات وساطة يائسة في الدقائق الأخيرة لضمان فهم واستيعاب صدام لجسامة الموقف وما يحيط به.وقد ساهم أشخاص كثيرون –معظمهم من العرب - ممن سبق لهم أن أقاموا علاقات شخصية مع صدام في تلك المبادرات والجهود، بما فيهم رجال أعمال أردنيون وشركاء لأبناء صدام ورجال أعمال مصريون وتجار نفط وآخرون ممن استفادوا من الحصار. ووفقاً لمسؤولين أردنيين تابعوا وراقبوا بعض تلك الإتصالات فقد جرى وأد الكثير من تلك المحاولات لـ "إصرار إدارة بوش على شرط واحد

لإنهاء خيار الحرب هو: تنازل صدام عن السلطة وتركه العراق. رفضت بغداد الشرط باصرار مطلق وعرضت ترتيبات أخرى.

ولكن مصادر عراقية في بيروت والقاهرة واصلت التأكيد على احتمال التوصل الى ترتيب معين بل وسربت أجزاءً من تسوية سيسر بغداد قبولها. لقد استند حل بغداد على فكرة " بقاء صدام رئيساً لجمهورية العراق ولكن ضمن نظام وصيغة برلمانية يمسك رئيس الوزراء فيه بالسلطة التنفيذية الحقيقية ويتحول صدام الى هيكل فخري بدون سلطة حقيقية". وتصر المصادر العراقية على قناعتها وعثورها على طريقة لإقناع واشنطن بقبول ودعم المقترح.وأوضحت تلك المصار العراقية بـ أن تلك التسوية "إذ ستعطي الولايات المتحدة نفوذاً ومكانة خاصتين وغير معلنتين في مسألتي النفط وفي تشكيل المؤسسة العسكرية العراقية، وكذلك بحل جميع الخلافات السياسية التي أثارها صدام اقليمياً ودولياً وتحت مظلة فخرية أو شكلية للأمم المتحدة" .

أمين الجميل

كان الجهد أو المحاولة الأخيرة والفريدة لتجنب الحرب والتي حظيت بمكانة خاصة هي التي تولاها رئيس جمهورية لبنان الأسبق والصديق المقرب لصدام منذ ثمانينيات القرن الماضي ١٩٨٠s أمين الجميل والذي أقنع بدوره صدام حسين بمقابلة مسؤول [أميركي] جاء معه في ٨ آذار/مارس- وهو عقيد كبير السن كان وراء الدعم الأميركي والسري للمجهود الحربي خلال الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات والذي حظي بصداقة صدام أيامها.

قابلهما صدام بود وصداقة حقيقية حين قدم له جميل رفيقه العقيد الأميركي. ومع ذلك توتر الموقف والمناقشة حين أكد العقيد لصدام بأن U.S ستعمل على اغتياله بعد نفاد مهلة الأنذار في١٩أذار/مارس.والسبيل الوحيد لتجنب محاولة الإغتيال هذه هو بقبول صدام المنفى وترك العراق الى مصر أو السودان أو سوريا أو أي بلد يرضى باستضافته. إحتد صدام ورد بشدة "سأموت ولن أستسلم". كرر العقيد تلميحاته، عندها هدد صدام بقطع رأسه وإرساله داخل صندوق الى بوش. فأكد العقيد لصدام بأن أمراً كهذا سيعجل باندلاع الحرب وفوراً. فرد صدام قائلاً "أنا لا أخاف الموت أبداً". واصل العقيد محاولته إقناع صدام بعدم قدرته على البقاء الى ما لانهاية لا قابعاً في ملجئه ولا حتى بين أبناء شعبه حال بدء القصف. لم يزد صدام وهو في قمة إنزعاجه عن تحريك يديه لإظهار معارضته واستيائه.ثم مد يديه مودعاً العقيد وأمين جميل بالكثير من الود الدافئ بعد أن سأل جميل ليمكث فترة أطول في العراق.وبقي الجميل فعلاً حتى ١٢آذار/مارس. لقد خلص كل من أمين جميل والعقيد الى أن صدام حسين قد حسم أمره وأنه قرر القتال.

الكرملين مرة أخرى

في ١٤آذار/مارس أبرقت الإستخبارات العسكرية الروسية (GRU) الى الكرملين أن القوات الأميركية في الخليج العربي دخلت حالة استعداد قتالي عالية وأنها جاهزة لشن حملة عسكرية خلال ٣-٤ ساعات وفور تسلمها الأمر بذلك. بل وأكدت (GRU) بأن جميع أوامر وخطط القتال قد وصلت جميع المستويات ذات العلاقة في

قيادة القطعات وحتى مستوى آمري الأفواج نازلاً. جاءت تقارير الإستخبارات [الروسية] لتؤكد الإنطباع السياسي لدى الكرملين بان إدارة بوش ستذهب الى الحرب دون انتظار لتخويل مسبق من مجلس أمن الأمم المتحدة بذلك. لذلك قررت روسيا القيام بمحاولة أخيرة لمنع الحرب. وفي ١٧ آذار/مارس أوفد الرئيس بوتين بريماكوف ثانية الى العراق لمقابلة صدام ومحاولة اقناعه بالتنحي. وفي بغداد أبلغ بريماكوف صداماً بأنه جاء بغداد حاملاً رسالة شفوية من بوتين.وأضاف بريماكوف بان "الرسالة هي أن عليه التنحي لمنع [أو لإيقاف] معاناة الشعب العراقي والتي ستكون وخيمة إن أندلعت الحرب".في البداية اقتصر اللقاء على بريماكوف وصدام فقط ، حيث دارت بينهما مناقشة شخصية وطويلة راوغ فيها صدام طويلاً حول سبب زيارة بريماكوف.بعدها أصر صدام على ضرورة اعادة بريماكوف رسالة بوتين الشفوية بحضور طارق عزيز. ولاحظ بريماكوف في ما بعد أن صداماً لم يرد ولم يعلق على الرسالة. ويتذكر بريماكوف أن "صدام ربت على كتفي ثم غادر الغرفة".

خطّط بضعة وزراء خارجية عرب للذهاب الى بغداد لإقناع صدام بمغادرة العراق الا أنه لم يسمح لهم بزيارة العراق. فصدام الذي تجاوز ونجا من صدمات وعثرات كثيرة ظل مقتنعاً بقدرته هذه المرة على المراهنة على الزمن والظروف ومراوغة جميع أعدائه مجدداً. وصدام الآن بانتظار تنامي غضب العرب الى الحد الذي يفرض معه بقاءه – أي صدام – في السلطة وأن يضغط العرب على واشنطن لإيقاف الحرب قبل أن تلتهب المنطقة بكاملها بلهيب [الثورة والفوضى]. "أرسل صدام إشارات عن استعداده لمناقشة

تخليه عن السلطة" قال ذلك مصدر استخباراتي غربي رفيع لـ ستيف رودان من MENL's وكانت تكتيكا ،فمتى ما أندلعت الحرب سيكون بوسع صدام القول لحلفائه العرب بانه رغب بإنهاء الحرب وتجنب أية هجمات باسلحة الدمار الشامل في مقابل ممر آمن له ليترك العراق. كانت تحركات قطعاته العسكرية تهدف وأكثر من اي شيء آخر لإعطاء الضغط الدولي وقتاً كافياً ليفعل فعله على واشنطن لوقف الحرب. لكن كان لدى واشنطن هذه المرة خطط أخرى.

مهلة بوش لصدام

في ١٧آذار/مارس ألقى بوش خطاباً متلفزاً منح خلاله صدام حسين وولديه ٤٨ ساعة فقط لترك العراق دون أية حصانة أو حماية.قال بوش: برفضهم تنفيذ ذلك سيشعل نيران حربٍ دموية ستبدأ حين نريد ". وكرر الرئيس بوش عرضه للقوات العراقية المسلحة بعدم إبداء أية مقاومة نظير توفير ما ستحتاجه من مواد تموينية وأدوية ؛ ومهدداً في الوقت نفسه بمجابهة أية مقاومة عراقية برد مدمر". ثم كرر بوش تأكيده للقوات وللمؤسسات الأمنية العراقيتين بضرورة تعاونهما مع القوات البريطانية والأميركية لأجل مصلحتيهما هما ولمستقبل العراق مؤكدا ٍ" أدعو جميع منتسبي القوات العسكرية وخدمات الإستخبارات أن عليهم إن أندلعت الحرب عدم الدفاع عن نظام ميت [متهاو] ولايستحق تضحياتهم بحياتهم من أجله". رفض صدام انذار بوش الأخير كلية – فلم يترك من خيار أخر سوى الحرب.

الحرب بدأت فعليا

بغض النظر عن إنذار بوش [وتوقيته]؛ فقد كانت U.S قد بدأت حربها مع العراق فعلاً. ففي ٧آذار/مارس أكدت مصادر كويتية أن الحرب قد نشبت فعلاً. لقد شن الطيران البريطاني والأميركي غارات قصف استراتيجي على المسالك الجنوبية الى بغداد بحجة خرق الطيران العراقي أومر الحظر الجوي ومنعه من التحليق فوقها No-fly-zone. ومع ذلك لاحظت تلك المصادر الكويتية أن بعض تلك الغارات الجوية شنت ضد أهداف استراتيجية شمال مناطق حظر الطيران. وفي ٩ آذار/مارس بدأ المارينز الأميركي بإزاحة السواتر الترابية على طول الحدود الكويتية – العراقية. لقد أزيلت تلك السواتر في ٣٣ قاطعا على النحو الذي سيسمح باندفاع الوحدات المدرعة سريعاً نحو جنوبي العراق. تزايدت في الوقت نفسه أعداد دوريات الطائرات المقاتلة في سماءي الكويت والعراق. وفي اليوم التالي [٢٠ آذار/مارس] شنت الطائرات البريطانية والأميركية سلسلة غارات جوية على خمسة مراكز اتصالات في جنوبي و وسط العراق - كان بعضها ضمن منطقة بغداد. كانت جميع الأهداف مجهزة بسيطرات طوعيةً (أوتوماتيكية) لإتصالات 'ألياف بصرية fibre-optic' والتي تراقب الرسائل وتعيد توجيه الآتية عبر خطوط أعطبت الى خطوط سالمة.ألقت الطائرات كذلك منشورات تحذر القطعات العراقية من الإقتراب من المدن، ولاسيما بغداد ، وإلاّ ستتعرض لقصف جوي مدمر.

يوم ١١آذار/مارس قدرت القيادة الوسطى CENTCOM أن U.S قد دمرت جميع بطريات مدفعية ضد الجو المنفتحة جنوبي

وشمالي العراق. وتولت الطلعات الجوية الأخيرة رصد وتحديد ما نشر قرب الحدود الأردنية والسورية من أسلحة ومعدات - وبالذات من منظومات الدفاع الجوي التي لا علاقة لها بموضوعة -No-fly zone ولكنها قد تعرقل العمليات الجوية للطيران البريطاني والأميركي خلال الحرب.لم تعد U.S معنية حتى بالتظاهر بأن لعملياتها الجوية أية علاقة بقرارات الأمم المتحدة بعد. وقال الجنرال ميرز موضحاً ذلك بأننا "ولمزيد من الضغط على النظام العراقي لنزع سلاحه فقد صعدنا عمليات المراقبة الجوية الجنوبية" مضيفاً "لقد قمنا بعدة مئات من الطلعات الجوية يومياً منها ٢٠٠ أو٣٠٠ فوق منطقة الحظر الجوي الجنوبية". وفي ليلة ١٤آذار/مارس أشركت U.S قاصفتي -1B كجزء من تشكيل جوي قاصف كبير ضد أهداف غربي العراق وبالذات ضد قاعدة -H٣. ولكن هذه الغارة الجوية التي لم تجابه باية مقاومة فعالة فشلت بتدمير منظومة ومعدات صواريخ سكود المنفتحة في المنطقة لاستخدامها ضد اسرائيل.

كان رد فعل العراقيين وفي الوقت نفسه لتصعيد هجمات التحالف محيراً ومثيراً إذ وفي ١٥آذار/مارس أمرت بغداد فرقة الحرس الجمهوري (توكلنا على الله) بترك مواقعها جنوبي العراق واعادة انفتاحها في محيط بغداد !. لاحظت استخبارات U.S واسرائيل وفي وقت واحد ظهور 'طبعات Image' صواريخ بالستية غربي العراق، ولكن دون تحديد موقع معين لها كما لم تؤكد المعلومة أو تحدد من مصادر أخرى. في ١٦آذار/مارس تولى صدام حسين بنفسه القيادة المباشرة للقوات الجوية وقوات الدفاع الجوي وقوات الصواريخ.ولم تقدم بغداد تفسيراً لهذا القرار. في

ليلة ١٧ آذار/مارس لاحظت استخبارات U.S واسرائيل ظهور طبعة الكترونية Electronicsignature' – وهي نمط متميز ويمكن ملاحقته من الإتصالات الألكترونية – ما يشير الى توزيع رؤوس وقنابل كيمياوية وبايولوجية الى تشكيلات قتالية في جنوبي وغربي العراق. ترك العراقيون[تعمداً] ظهور هذه الصورة كعلامة تهديد وردع للأميركان.

وبدءا من منتصف آذار/مارس عبرت الحدود العراقية وفي كل ليلة مجموعات متزايدة من القوات الخاصة وزمرCIA لتنفيذ مهام أستخبارية محددة و/أو للبحث عن صواريخ بالستية واسلحة دمار شامل وأهداف حيوية أخرى. شنت عدة عمليات مركزة بحثاً عن صواريخ سكود في مجمع وقاعدة (شعب الحيرة) غربي العراق وهي منطقة مفضلة لعمل وحدات الصواريخ البالستية.تولت القوات الخاصة مراقبة ودراسة الطرق المحتملة لمرور قوات الغزو البرية عبرها للتأكد من عدم وجود أية مباغتات. وفي ليلة ١٩ آذار/مارس وحدها دفعت (U.S Thirty One) مجموعة قوات خاصة – تضم أكثر من ٣٠٠ رجل – مع عدد قليل من وحدات قوات خاصة SAS بريطانية واسترالية داخل العراق. وكان هذا تسللا رئيسا رافقته عدة مفارز تسللت هي الأخرى من الأردن والسعودية، بينما تسللت عناصر أخرى بسمتيات مطورة حطت عميقاً خلف الخطوط العراقية. تولت بعض هذه المجموعات الإتصال مع ، وتعزيز بعض مجموعات صغيرة من قوات خاصة وزمر CIA العاملة داخل العراق. بينما انطلقت مجموعات أخرى لأداء ما عهد اليها من مهام. وخلال الليلتين التاليتين هبطت مجموعات قوات خاصة إضافية أخرى من - U.S وبريطانيا

وأستراليا- في العمق العراقي، وعلى الأخص في مناطق كردستان البعيدة، وقرب الحدود السورية.

ملحق عن المخادعة - معلومات

النجاح السوفيتي

بين ١٩١٧وحتى منتصف الخمسينيات ١٩٥٠ واجه النظام السوفيتي مقاومة مسلحة ومعارضة داخلية شعبية واسعتين. وللتعامل معها استنبط السوفيت استراتيجية خاصة بتدمير تلك الحركات والمجموعات المعادية من جهة وباختراق وخداع دوائر الاستخبارات الغربية التي خططت للتدخل لمساعدة تلك المجموعات المعادية للسوفيت ، ومن ثم تسيير تلك الحركات بما يخدم أهداف السوفيت من جهة وللاستيلاء على المساعدات الغربية السخية من جهة أخرى. ووفقاً لهذا النهج فقد نجحت دوائر مكافحة التجسس السوفيتية بدءاً من الجيكا Cheka والى KGB بتحويل المساعدات الغربية بعيداً عن المعارضة الحقيقية للشيوعية والمجاهدين من أجل الحرية وتوجيهها الى منظمات وجبهات من صنع السوفييت. وفي معظم الحالات تقريباً حظيت تلك التنظيمات الكاذبة بنجاح غير متوقع مدها بزخم واندفاع لم يدع أية فرصة لكشف الخداع السوفيتي.

يثير السجل السوفيتي في الحقيقة الدهشة والإعجاب: فبعد أمد قليل من ثورة ١٩١٧قررت دائرة الإستخبارات السوفيتية Cheka شلّ ومحاصرة الشبكات المعادية للنظام والتي تمحورت حول تنظيمات المهاجرين واللاجئين الروس في الغرب والتي تدعمها أجهزة المخابرات (الخدمات السرية) الأوربية وذلك بتوجيه أنظار أجهزة المخابرات الغربية تلك نحو تنظيمات المعارضة الكاذبة التي

صنعتها المخابرات السوفيتية وتعرف – الثقة The Trust- على أنها منظمات معادية حقيقية للنظام البولشفيكي.ويوم قررت موسكو إنهاء عمليات الخداع كانت الـ Cheka قد قضت نهائياً على جميع قوى المعارضة الوطنية الداخلية. كان جميع قادة ومدبري تلك المعارضة المهمين بما فيهم جنرال (سافنكوف) وعميل الخدمة السرية البريطانية السرية سدني رايلي في شراك السوفييت ليواجهوا الموت أخيراً على يدي الـ Cheka. وأكثر من ذلك وعبر السياسة الإقتصادية الجديدة NEP وبمتابعة القسم الإقتصادي في – الثقة The Trust- انتهى الغرب بتمويل الإقتصاد الروسي الذي كان يستعيد عافيته وبتعزيز سيطرة البولشفيك.

ولم يكن السوفيت أقل نجاحاً في مخادعته الكبرى بالقضاء على ثورة (بيسماشي) في وسط

آسيا والقوزاق والتي قادها أحفاد شامل Shamil (الثائر الأسطورة في منتصف القرن التاسع عشر) .في هذه المرة أنشأ السوفيت مجموعات خاصة تظاهرت بأنها من جماعة (البيسماشي) وبدأت هذه [المنظمات العميلة للسوفيت]العمل قرب المناطق الحدودية ولفتت انتباه قطعات كثيرة من الجيش الأحمر وبدأت تتصل بالإستخبارات البريطانية والتركية، ونجحت في النهاية بالحصول على مساندتيهما الكاملة. وخلال تنقلها في أواسط أسيا نجحت بكسب وتنظيم قوات حقيقية من البيسماشي في مفارز [خولت بـ]مهاجمة وحدات الجيش الأحمر.وفي النهاية قاد ذلك الى اغتيال جنرال أنورباشا في ٤آب/ أوكست١٩٢٢ من جهة والى انهيار حركة البيسماشي. ومابين

١٩٢٥و١٩٣٠ أغارت القوات السوفيتية العاملة في أفغانستان على بقايا مجموعات البيسماشي ودمرتها منهية بذلك جميع قوى العارضة والمقاومة داخل الاتحاد السوفيتي.

ابتزاز منظم

وبعد الحرب العالمية الثانية بقليل انتشرت موجات من المعارضة الواسعة من القوى القومية المتحمسة ضد الشيوعية في أوربا الشرقية.إذ تحركت عناصر اثنية معينة في البلطيق و أوكرانيا وبولندا وحتى ألبانيا لمقاومة الشيوعية. تشكل تحالف من مخابرات غربية تقوده CIA والمخابرات البريطانية SIS لتوفير مساعدات عسكرية ضخمة ومالية لتلك الشعوب مع تركيز خاص على تدريب بعض المهاجرين واللاجئين ليتولوا قيادة تلك المنظمات والقوات وإسقاط بعضهم بالمظلات الى بلدانهم السابقة ليتولوا قيادة الثورات القومية التي اشتد أوارها سريعاً. فتحركت NKVDs (الإستخبارات السوفيتية) بسرعة للقضاء عليها وابادتها.

تمثل أحد الأجزاء المهمة لمكافحة الإستخبارات (الإستخبارات المضادة) السوفيتية بالعمل على تحويل الدعم والمساعدات الغربية بعيداً عن حركات التحرير الحقيقية. أرسل العديد من عناصر NKVDs وكذلك من بعض القادة الوطنيين الحقيقيين ممن أخضعوا كرهاً أو أبتزازاً لأختراق الحركات القومية في أوربا الغربية وفي بلدانهم الأصلية. كما اخترقت NKVDs أو أنشأت العديد من المنظمات المعارضة الشكلية (الشبحية) وسمحت لها بمهاجمة بعض وحدات محلية من المليشيات السوفيتية ومهاجمة أهداف حكومية أخرى لضمان بعض المصداقية لعملها ، وكي

يسهل على قادتها – من عناصر متقدمة في NKVDs- التسلل الى الغرب كممثلين حقيقيين لشعوبهم ولتقديم شروح وإيجازات عن الموقف في بلدانهم.وأكثر من ذلك تسلم هؤلاء المساعدات العسكرية ومعدات جمع الإستخبارات. وهكذا ظهرت أو بدأت دورة أو حلقة كاملة ومفرغة تتولىNKVD تمرير معلومات كاذبة عن حركات تحرير صورية وتتلقى بالمقابل مساعدات مالية وعسكرية.

وبعد فترة وجيزة أصبح الغرب رهين خداع NKVD ومن وضعتهم في طريقه من صنائعها وعملائها في الوقت الذي غدرت فيه بقادة وعناصر المقاومة الحقيقية وسلموا الى السوفييت بفضل جهود NKVD و[غباء ولامبالاة] CIAو SISاللتين كانتا تلحان على تلك العناصر [الإسلامية]الوطنية بالإتصال بعناصر المقاومة المدعومة [المصنوعة من قبل]الـ NKVD.أما عناصر المقاومة المحلية والحقيقية التي رفضت السير في المخطط الغربي الكبير فقد حرمت من أية مساعدات غربية. لذا بات قضاء السوفييت النهائي على [المقاومة الأسلامية والثورة القومية] مسألة وقت لا أكثر.وفي منتصف الخمسينيات ١٩٥٠ كانت NKVD قد دمرت وبنجاح تحسد عليه جميع قوى المعارضة الداخلية ودمرت كذلك جميع الجماعات المسلحة الفاعلة على طول الإتحاد السوفيتي.بعدها قررت NKVD إنهاء العملية مؤكدة ضحالة وغباء الجماعات التي دعمتها CIA و SIS. تناول (توم باور) في دراسته الهامة(Red Web The الشبكة الحمراء) تفاصيل مثيرة عن كيفية مداولة الـ' KGB ' للمقاومة الوطنية المدعومة من SIS مابين ١٩٤٤-٥٥ محدداً المصادر الرئيسة للفشل الماساوي لكلا الطرفين SIS وثوارالبلطيق

الذين ساندتهم قائلاً: "لقد صدقت SIS خدعتها التي صنعتها بنفسها وبرضاها، ثم صدقت نجاحها الوهمي".

لجأت المخابرات السوفيتية الى نفس الطريقة خلال حربها في أفغانستان حالما عرفت بأن الولايات المتحدة تحشد طلائع جهد دولي لدعم المجاهدين الأفغان.ونظراً لأن أكبر عملاء ومدلل ISI (المخابرات الباكستانية) والمتلقي الرئيس لمساعدات CIA والسعودية أي قلب الدين حكمتيار وقادته، يعملون جميعاً للإتحاد السوفيتي بدرجة كبيرة ومنذ ثمانينيات القرن الماضي ١٩٨٠. كانت القيادات العليا للحزب الاسلامي الذي يتولى قيادته قلب الدين حكمتيار نفسه تشكل عنصراً مهماً وحاسماً في عملية المخادعة السوفيتية الكبرى ضد U.S ، وتهدف الى شل وتدمير المقاومة الأفغانية. وعلى سبيل المثال ، فمنذ تصعيد القتال داخل أفغانستان عام ١٩٧٩كان القتال الرئيس الذي تولاه الحزب الاسلامي موجهاً وبالأساس ضد فصائل مقاومة أفغانية أخرى.وقال المرحوم القائد عبد الحق بأن" مشكلة قلب الدين حكمتيار هي أنه قتل من المجاهدين [الأفغان] أكثر مما قتل من السوفيت". وعام ١٩٨٩ تولى رجال حكمتيار٨٠%من عمليات قتال المقاومة داخل أفغانستان. ولم يهدف هذا القتال السيطرة المحلية أو الإستحواذ على الموارد وحسب بل وتحجيم واحتواء تطور قوات المقاومة المسلحة الى الحد الذي قد يضر الحكومة المحلية (حكومة جمهورية أفغانستان الديمقراطية) في ما بعد.

كان أحد أنجح القادة/عملاء KGB هو عميل ′ KGB ‘العريق′ Shirgol‘ المعروف بـ (الدرويش) مابين ١٩٨٤- ٨٧ وكان من كبار

قادة الحزب الاسلامي ISI‘ في منطقة ’بارافان ‘. و في أوائل الثمانينيات ١٩٨٠s؛ تطوع شيركول في المخابرات الأفغانية KhAD‘ ثم بدأ يتسلق المراتب فيها حتى رفع أمره الـ KGB. تولى شيركوف في البداية مقاتلة فصائل مقاومة أفغانية أخرى في منطقته وبأمر من KhAD‘؛ومبرراً ذلك أمام الحزب الإسلامي ’ISI‘ بتعزيز سيطرة قلب الدين حكمتيار على المنطقة. ولإنجاح حملته هذه تلقى المزيد من الأسلحة بما في ذلك صواريخ أرض- أرض وأرض – جو.وخلال العامين التاليين شكل نواة قوة من ٥٠ مجاهداً مخلصين له شخصياً وقد تبعوه في النهاية الى (كابل) أوائل ١٩٨٧؛ فيما عرف بأكبر انقلاب دعائي للنظام الشيوعي.

كان أعظم انجازات شيركول (الدرويش) هي المخادعة الاستراتيجية الكبرى بدعم فعال من قلب الدين حكمتيار ضد CIA؛ و ISI ‘. فخلال منتصف ١٩٨٠؛ كانت CIA و ISI‘ يخططان لضربة استراتيجية شجاعة باستخدام أفغانستان كنقطة أنطلاق لأختراق وربما لتحريك وتثوير وسط أسيا السوفيتية. إدعى حكمتيار أن لديه أنصارا من لاجئي وسط أسيا في إقليم بارفان ثم أقنع CIA بتعيين شيركول قائداً لل ”الجيش الأسلامي “ المعد لتحرير بخارى وجميع وسط أسيا السوفيتية. وبعد حصوله على مساعدات ضخمة تولى أتباعه في أقصى شمال غرب أفغانستان إقناع السكان المحليين والكثير منهم من أبناء عائلات (بيسماشي) التي فرت من الإتحاد السوفيتي في ١٩٢٠,و ١٩٣٠ لينظموا للحزب الإسلامي لتشكيل جيش تحرير إسلامي، وعين حكمتيار أحد أبناء عمومة آخر أمراء بخارى والذي أسقطه السوفيت في ١٩٢٢ كأمير جديد لبخارى. تبرعت دول ومؤسسات عربية عدة بمبالغ ضخمة

وأسلحة لانشاء هذا الجيش. بدأ تدريب جيش تحرير بخارى الإسلامي أواخر ١٩٨٤ في بارفان تحت قيادة شيركول المباشرة. ألحق العديد من المسلمين ممن فروا من وسط آسيا السوفيتية ووصلوا باكستان بهذا الجيش. أبقي كل من KGB و KhAD على اطلاع تام بكل مجريات التدريب. لذا وفي أوائل ١٩٨٧ وبعد أسبوع من عودة شيركول الى كابل تولى الطيران السوفيتي محق جيش بخارى بشكل يتعذر معه عودته للعمل.

....

الروس يعلمون

رغم ما يفترض بأن تسلل القوات الخاصة وعملياتها داخل العراق كان سرياً، فقد كان وجودها معروفاً للروس منذ البداية. فلقد ورد تقرير للإستخبارات العسكرية الروسية GRU الى الكرملين في ١٩آذار/مارت بوجود "حوالي (٣٠) وحدة استطلاع وأخرى لشن عمليات وهجمات تضليل قد تسللت أو(أنزلت) في العراق من قبل بريطانيا وU.S. كانت المهمة الرئيسة لهذه الوحدات هي جمع معلومات عن الأهداف المقبلة لأسراب وموجات الطائرات الرئيسة لشن الضربات الجوية". وأكثر من ذلك ففي تلك الليلة (بتوقيت العراق) أمرت القيادة العليا لقاطع الناصرية السكان بالبحث عن "عناصر قوات خاصة لـ U.S والتي تسللت في منطقة الحدود في اقصى جنوبي العراق". وحذرت الرسالة من أنه مالم يتم إيقاف تلك القوات الخاصة فـ "ستستغل الأراضي العراقية لشن عمليات قتالية برية". لكن برغم غارات البحث الواسعة النطاق التي تولتها القوات العراقية ودوريات قوات الأمن المحلية الكثيفة لم تكتشف أية مفارز قوات خاصة لـ U.S ولا لحلفائها وبالتالي لم تفشل أي منها في أداء مهامها.

قبل يوم واحد

خلال يوم ١٩آذار/مارت برغم العواصف الرملية الكثيفة بدأت القوات الأميركية والبريطانية تصعيد حملتيهما البريتين على طول الحدود الكويتية. فسيطرت القوات الأميركية الأمامية 'Advanced forces' على جميع الأرض الحرام أي "المنطقة العازلة no-man's

land " بعرض (١٠) أميال بين العراق والكويت بما فيها حقل الرميلة الكبير جداً. عبرت مفارز صغيرة من قوات U.S خط الحدود العراقي قرب القاعدة البحرية العراقية الوحيدة في أم قصر. متذرعة بوقوع اشتباك بين زوارق تهريب عراقية وأخرى كويتية لمحاولة العراقيين زرع ألغام في الليلة السابقة. نفذت بحرية U.S خلال النهار عمليات صيد في الخليج العربي ومدخل شط العرب بحثاً عن زوارق إنتحارية نُشرت هناك لمهاجمة سفن وبوارج أميركية وبريطانية. وفي وقت مبكر من اليوم نفسه تقدمت قوات كبيرة من مارين بريطانيا و U.S نحو الجزء الشرقي من المنطقة ثم عبرت بكاملها تقريباً. وفي اليوم نفسه توغلت عناصر من قوات U.S و بريطانيا الى عمق(١٠-١٥) ميلاً داخل العراق واندفعت شمالاً برغم العواصف الرملية الكثيفة. تقدمت تلك القوات عبر محورين متمايزين – الأول نحو البصرة [بريطانيا] والثاني باتجاه الناصرية [مارين U.S].ووفرت حاملة الطائرات الأميركية ’لنكلن USS lincoln‘ إسناداً جوياً متقطعاً من طائراتها.كانت تلك بداية طيبة فقد استسلمت عناصر فوجي مشاة عراقيين كانا شمال الشريط منزوع السلاح حالما رأوا القوات المتقدمة نحوهم.قصفت وفي الوقت نفسه طائرات -s١٨F؛ القطعات والمنشآت العراقية قرب الحدود الأردنية غربي العراق.

أول اشتباك

وقع في مساء (١٩ آذار) أول إشتباك بري على الطريق نحو البصرة ، فقد هاجمت قوة من مارين U.S قوة دفاعية بحجم فوج احتلت نطاقاً دفاعياً لحماية الطريق العام على مبعدة ١٢ميلاً

تقريباً شمال الحدود الكويتية.ضمت القوة العراقية حوالي(٤٠) دبابة وحوالي (٢٥) قطعة مدفعية ثقيلة. هاجم المارين الخط الدفاعي الأول بينما تولت طائرات أميركية وبريطانية قصف قطع المدفعية الساندة. وحسمت المعركة باشتباك حاسم وشديد بعد الظلام تفوق فيه التدريب الأميركي على العمليات الليلية وفي استخدام معدات القتال الليلي ومنظومات تقريب ميدان المعركة 'Battle-awareness'؛التي أثبتت أهميتها الحاسمة بدحر قوة عراقية متخندقة بشكل جيد. بعدها انحرفت قوات التحالف شرقا وبدأت بتعزيز جبهة دفاعية باتجاه أم قصر والبصرة. كانوا يدفعون قوات الدفاع العراقية الرئيسة الى الخلف باتجاه المدن وبعيداً عن الساحل وعن تسهيلات الميناء تمهيدا لتسهيل عمليات انزال التحالف للتعزيزات في الميناء. مازالت تشكيلات المدفعية العراقية الكبيرة والموزعة على خطوط ومواضع متعاقبة تشكل التهديد الرئيس. وأشارت تقارير استخبارات U.S الى أن بعض بطريات المدفعية تلك قد جهزت بقنابل كيمياوية. وخلال الليل واصلت طائرات بريطانيا وU.S قصف مواضع المدفعية العراقية دون جدوى فلم تكن الغارات الجوية مؤثرة كثيراً بسبب العواصف الرملية ، كما أن استخدام السمتيات لم يعد ممكنا على الإطلاق خلال العاصفة.

خلال تلك اللية جاء ممثلو فرقة المشاة/١١، وفرقة آلية/٥١ الى مواضع القوات الأميركية المتقدمة عارضين التفاوض للإستسلام. كان واجب تلك الفرقتين هو: حماية المقتربات الجنوبية لحقول نفط الجنوب. ثم وكما اتضح بعد أيام من ذلك ان العملية برمتها

كانت جزءا من خطة مخادعة عراقية صيغت لتأكيد قناعات مسبقة لاستخبارت U.S من أن القوات العراقية سوف لن تقاتل.

توقعات وردود أفعال

برغم أن الضربات الأميركية الجوية الكثيفة والمدمرة صباح ٢٠ آذار/مارس (توقيت بغداد) قد بدأت الحرب على العراق رسمياً إلا أن العمليات البرية تواصلت باستمرار وفق الخطط و التوقيتات المقرة والتي نصّت على أن: تبدأ الحرب ليلة الـ٢٠ منه. وفي الكويت صرحت مصادر دفاعية أميركية بأن "من المتوقع بدء هجوم كثيف على العراق أواخر يوم الخميس (٢٠آذار/مارس) أو مبكراً يوم الجمعة ٢١/منه" وأن ذلك "الهجوم سيتألف من ضربات جوية وبرية وبحرية لأهداف عراقية" إلا أن قادة ميدانيين محليين أميركان وبريطانيين لم يكونوا على علم بضربات بغداد وأنهم شرعوا وعلى الفور بتسريع قفزات تقدمهم. جوبهت موجة الهجوم الأولى بنيران مدفعية عراقية كثيفة ما أوجب استدعاء الإسناد الجوي لمعالجة هذا التصدي. لكن وعلى العكس من هذا الرأي أوالتحليل فإن ردود فعل العراق الأولى كانت سيئة ونذير شؤم. إذ ووفقاً لمصادر رفيعة في دول الخليج ؛فقد " دعى عدي صدام حسين فدائيي صدام للتهيؤ للإستشهاد". وستتضح أهمية هذا الأمر في الأيام القليلة القادمة ومع تواصل اندفاع القوات الأميركية والبريطانية داخل العراق.

صواريخ لم تقتل أحدا

في ما بعد ظهيرة ذلك اليوم أطلقت القوات العراقية خمسة أوستة من صواريخ أرض - ارض الصمود وصواريخ سكود في ثلاث صليات باتجاه مواضع الجيش الأميركي شمال الكويت، وذلك من موضعين الاول في شبه جزيرة الفاو والثاني من جنوب بلدة (سوق الشيوخ) . هذا وأطلقت صواريخ باتريوت للتصدي للصواريخ العراقية ولكنها لم تسقط سوى صاروخ صمود واحد. وبرغم أن الصواريخ العراقية لم تصب أحدا، إلا أن السلطات الكويتية أمرت بإطلاق صفارات إنذار الدفاع المدني لمدينة الكويت خوفاً من هجوم أو ضربة بايولوجية ، ولقد دعت تلك السلطات السكان لارتداء أقنعة الغاز. بعد دقائق إهتزت المدينة بفعل إنفجار مدو سببته موجة صواريخ عراقية ثانية فشلت صواريخ باتريوت بالتصدي لها أو أسقاط أي منها. وبرغم ذلك لم تقع أية خسائر بالأرواح هذه المرة أيضاً. مع ذلك رأى معظم المراقبين أن هجمات الصواريخ العراقية بداية لحملة [عراقية] أشد كثافة. وهذا ما كان رأي مسؤول عسكري ايراني رفيع جداً، إذ قال "نظراً لتمتع U.S بفائقية كبيرة في الحرب الألكترونية فقد أخفى العراق مواضع صواريخه ليتعذرعلى U.S كشفها. لذا بدا الأمر لبعض الوقت وكأنها ستطلق صواريخها ضد أهداف U.S بما فيها اسرائيل" ،مضيفاً "والعراق لابد سيقصف اسرائيل"!

طبيعة الهجوم الفعلي

بدأ الهجوم البري الفعلي مساء.٢٠ آذار/مارس حين وصلت القوات الأميركية والبريطانية الحافات الأمامية لمناطق تحشدها.وحين تركت الكويت حملت القوات الأميركية معها مواد إعاشة (تموين) أساسية- طعام وماء وعتاد تكفي لخوض قتال حديث لأربعة أيام، وستثبت الايام أنها لم تكن كافية ولا مناسبة للقتال المقبل.

نصت خطة الحرب الأولية على تنفيذ حركة خرق واسعة من الجنوب باتجاه بغداد واندفاع [رتل واحد] من الشمال ولو أن التعرض الشمالي كان سيلغى بسبب رفض الأتراك السماح للولايات المتحدة باستخدام أراضيها بينما ظل الجزء الجنوبي من الخطة دونما تغيير. كان المبدأ الرئيس للخطة هو: إحاطة واسعة لأرض الشيعة من الشرق والغرب وبرتلين يلتقيان في منطقة بغداد الكبرى.(كان لمزيج من قوات الصولة الجوية [من الفرقة/١٠١ صولة جوية] والقوات الخاصة وقطعات كردية يقتربان من بغداد للتعويض عن الرتل القادم من تركيا) .سيتقدم الضلع الغربي غرب الفرات (غرب طريق الناصرية-النجف) أما الضلع الشرقي فسيندفع شرق دجلة (بصرة –عمارة –كوت) يلتقيان أخيراً في بغداد.

يكمن المنطق الذي صاغ هذه الخطة افتراض [دوائر] الإستخبارات بأن قطعات الجيش العراقي والمنفتحة وبكثافة في المناطق التي يتوقع مرور رتلي الكماشة عبرها سوف لن تقاتل.

هجوم الكماشة سيتجنب المدن والمراكز الشيعية الكبرى (خوفا من اندلاع مقاومة شعبية تثيرها عناصر ايرانية]. كانت الولايات المتحدة تخشى كذلك من أن القوات الخاصة العراقية والارهابيين قد يفجرون الجسور الرئيسة على النهرين ومن قدرة قوات الحرس الجمهوري على تفجير سد الهندية على الفرات وسد ميسان على دجلة لعرقلة تقدم قطعاتها.

يسمح إتساع فوهة الكماشة للأميركان كذلك بتجنب الطرق الوسطى (المركزية) المتجهة الى منطقة بغداد والتي تحت سيطرة الحرس الجمهوري الذي أنشأ فيها أرض قتل لمدفعيته تشتمل على القنابل الكيمياوية.خلال الأشهر التي سبقت الحرب قصفت الطائرات المقاتلة وبانتظام المنشآت العسكرية الرئيسة المسيطرة على محاور التقدم أما مدى وقوة تأثير تلك الضربات الجوية فما زال موضع نقاش بين العسكريين.

الجزء الثاني: السباق إلى بغداد - ٢

مقدمة المترجم

هذا هو الفصل التاسع من كتاب (التاريخ السري لحرب العراق) يواصل فيه مؤلفه يوسف بودانسكي وصف السباق الى بغداد من الوجهة العسكرية ، لكن ابتداء من النهاية غير المتوقعة والتي يطلق عليها (لغز بغداد) . إن بودانسكي يفسر هذا اللغز سيكولوجيا في اطار تغيير الخطط العسكرية للنظام وتدخل عوامل اقليمية ومذهبية. إنه يسرد بعض الوقائع ، لكنه في هذه الاثناء يبدو كأنه نسي ميزان القوى غير المتكافئ. يتحدث المؤلف عن مجريات الحرب ووقائعها ومراقبة السوفيت لوقائعها ودورهم في تقديم نصائح لصدام. في كل الاحوال يجب الا ننسى أن هذا الكتاب المليء بالمعلومات والملاحظات لا يخلو من توجيه رسائل ، كما ان بعض توصلاته السياسية تبدو غير مقنعة.

كان بودي أن أغير عنوان الفصل الى (لغز بغداد) المحير وكيف دخلتها أو تسللت اليها قوات الإحتلال في وضح النهار.لا معنى هنا للقول أن بضع دبابات وعجلات قتال مشاة أميركية قد انحرفت عن مسارها الأصلي نحو غرب بغداد أوشمالها الغربي واتجهت خطأ الى جسر السنك (الرشيد) أي في قلب بغداد. فما معنى فقدانها الإتجاه ؟

مبعث الحيرة متعدد الجوانب، فمن يتمعن في صمود مدن أم قصر والفاو والناصرية و(الكفل) توقع أن يشهد العالم ستالينغراد أخرى أو أكثر في كل مدن العراق الرئيسة الممتدة على طول الطريق الى بغداد وليس في بغداد وحدها. ومن يتمعن في معارك الناصرية

وما ألحقته من اذى بمشروع وخطط الإحتلال فله كل الحق بان يشهد ملاحم بطولية. لقد اوقعت قوات الدفاع والمقاومة العراقيتان يوم ٢٣ آذار ضربة موجعة بقوة أميركية كبيرة تراوحت بين سرية دروع وعجلات قتال مشاة مختلطة (مجموعة قتال باسم ليما بقيادة العقيد دودي الذي اعفي من القيادة لفشله في معارك الناصرية) وعلى حد قول بعض المصادر ادت الى تدمير جحفل معركة (فوج أو كتيبة مختلطتين) وأخرجت فوج سمتيات أباشي من الخدمة بعد ما ألحقته من أضرار بأبدان السمتيات وأسقطت ودمرت سمتية واحدة وأسرت طاقم سمتية اباشي أخرى كان بين أفرادها المجندة جيسيكا لينج (التي اعتبرت المصادر الأميركية قصة انقاذها من مستشفى الناصرية كأنه معجزة عسكرية) . وقد أدعى كتاب (الزحف) أن القوة التي ضربت كانت عبارة عن رتل (ذيل) إداري لا يحسن سواقو عجلاته حماية أنفسهم والإنتشار الأمين ؛وقيل أن المجندة جيسيكا كانت في دورية استطلاع ظلت طريقها ومرت وسط الناصرية خطأ وبعد خروجها من طرف المدينة الشمالي أدركت خطأها وأضطرت للعودة من نفس الطريق فاسرت هي وقتل وأسر أخرون. ثم اعترف كتاب الزحف بمقتل (٨٠) جندياً في ذلك اليوم.

المترجم

معارك الناصرية

الأمر المهم والأخطر من كل ذلك أن معارك الناصرية فرضت توقفاً وشللاً تامّين على العمليات العسكرية لقوات الإحتلال إذ أقر الجنرال مككرينين فرض وقفٍ قسري (مفتوح) قد يستمر أسابيع أو أشهراً الأمر الذي أثار قلقاً بالغاً في لندن وواشنطن.

كان سببا التوقف الرئيسين هما:

١- قلة القطعات ؛ولا بد من انتظار وصول وتكامل فرقة المشاة /٤ التي رفضت تركيا مرورها عبر أراضيها الى شمالي العراق وكذلك رفض السعودية والأردن مرورها أيضاً عبر أراضيهما وقبلته الكويت.

٢-توفير حمايات كافية لخطوط المواصلات الطويلة بسبب الغارات والكمائن العراقية التي أجبرت قوات المحتل على الاكتفاء بالنزر اليسير من مواد تموين الحرب الرئيسة.

وقد أثار هذا التوقف قلقاً ويأساً بين القطعات الأمامية التي فوجئت بالإستعدادات والترتيبات العراقية. لخص الفريق وليام.أس. وولس قائد الفيلق الخامس الأميركي الأمر بقوله: "يختلف العدو الذي نقاتله [في العراق الأن] عن العدو الذي قاتلناه في لعبات الحرب إبان الإستعدادات [لغزو العراق]" - كتاب الكارديان ص -١٠٨ .

بوسعي الإستعانة والإستشهداد بالكثير من الأقوال والكتابات، ولكن ما لم يمكن تصديقه إطلاقاً أن تترك بغداد دون دفاع. لقد

تحدث أحد كبار القادة العسكريين العراقيين عن مصاعب الدفاع عن بغداد وما قد تتكبده القطعات العراقية من خسائر أو موت (١٥٠) ألف مواطن.كان بوسع النظام العراقي تجنيب بغداد ويلات الحرب والإحتلال بإعلانها مدينة مفتوحة ! أما متى يمكن فعل ذلك وكيف.. فليس هنا مجال الخوض فيه.لقد نسي القائد آنف الذكر أن أموراً كهذه لا تترك لحسمها في وقت متأخر أو حين يكون العدو على الأبواب. ولاحاجة لنا بالتذكير أن سقوط العاصمة يعني وفي حالات كثيرة انتهاء الحرب واستسلام الطرف الخاسر.

قيل الكثير عن خطط الدفاع عن بغداد، وعن تخطيط دفاع استراتيجي بتقسيم العراق الى أربعة خطوط أو دوائر دفاعية ، يبدأ الأول من الحافات الحدودية كالبصرة والرطبة لخوض معارك التعويق الأولى، وعلى قوات هذا الخط أو ما بقي منها قادراً على القتال الإنسحاب أو التراجع -إن ساعد الموقف -الى الخط الثاني عند الناصرية والعمارة وربما الكوت كخط تعويق ثاني، ثم الحلة وكربلاء والمحمودية كخط تعويق ثالث، و أخيراً الى دفاعات بغداد كخط رابع وأخير وبلون "أحمر" حيث ستدور معارك النظام الأخيرة. ولا أدري أكانت هذه خطط حقيقية أم نشرت على سبيل التضليل والمخادعة. لذا لن اتوقف عندها طويلاً ولاسيما أنها لا تلقي أية أضواء على (لغز بغداد) !

حرب العصابات

ورد في تقارير المقدم [الكيمياوي أكرم الدباغ] عن اجتماع هام لصدام ونخبة من أخلص القادة ومن أعوانه أقر فيه بعزم

الولايات المتحدة على احتلال العراق ، وعليه لابد من التحول وسريعاً الى حرب العصابات بعد مقاومات ومعارك إعاقة بسيطة. من اجل هذا أخفت القيادة الكثير من أسلحة ومعدات حرب العصابات في مواقع سرية ومزودة بأسماء سرية ومشفرة لا يعرفها الا صدام ونفر قليل مختار. إن انكشاف أماكن أو أسماء (الكود) لأي من تلك المواقع سيؤدي فيما سيؤدي اليه إعدام آمر الوحدة المعنية فوراً وعلانية. ومع ذلك سأواصل البحث عن ألغاز معركة بغداد. لنعد الى الفصل الثالث من: السباق الى بغداد....

الطائرة البيلاروسية

بعد فشل الضربة القوية في ٢٧ أذار/مارت ظهرت أولى علامات فقدان الثقة على [نظام]بغداد. ورغم أن معظم الإشارات والظواهر السائدة كانت توحي بأن بغداد مازالت واثقة من قدرتها على امتصاص/إحتواء أو حتى دحر الهجوم المعادي في النهاية. فقد طلبت بغداد من موسكو بيان رأيها بالموقف الحربي عموماً. عندها أو بعدها كسر الحاجز النفسي وبدأ صدام يفكر فيما لا يمكن التفكير به حتى الأن– أي سقوط بغداد بيد الأميركان. لذا طلب فوراً من روسيا البيضاء (بيلاروسيا) (التي طالما عرضت عليه ملاذاً آمناً) تسهيل إخلاء عاجل لأفراد عائلته، وكبار مسؤوليه ، وكنوزه ، وأرشيفه. وفي يومي ٢٩ و٣٠أذار حطت طائرة نقل خاصة(أليوشين-٧٦) ولفترات قصيرة في مطار صدام الدولي ونقلت ومباشرة الى (منسك) في بيلاروسيا حمولات بالغة الأهمية وأشخاصاً.حلقت الطائرة عبر الأجواء الأيرانية ، فلم تحاول أيران التدخل في المهمة. أرسل عدي الى منسك في الرحلة الأولى ليشرف

على ترتيبات سفر العائلة بكاملها.أثارت الفوضى والإضطراب في المطار شائعات عن هرب صدام وعائلته من البلاد.

نصائح روسية

وفي ٣٠ آذار قدم الخبراء العسكريون الروس [تقديراً] مفزعاً للموقف الحربي الى صدام حسين وحلقته الداخلية. تضمن تقرير الإستخبارات الروسية GRU,s في ٣٠ آذار أسس وخلاصات التحليل الروسي الى الكرملين: نصح الخبراء الروس القيادة العسكرية العراقية ألا تتمادى في تفاؤلها المفرط. لا شك في أن الحرب الصاعقة blitzkrieg التي شنتها U.S قد فشلت في احتلال العراق ولا في تدمير جيشه بعد ، و من الواضح أيضاً أن الأميركان قد توحلوا في العراق وأن حملتهم العسكرية سقطت في مطب لزج. ورغم ذلك فالقيادة العراقية الآن في خطر الإستهانة بقدرات العدو، وحتى الآن ما من سبب معقول للتشكيك بعزم الأميركان ولا بتصميمهم على تحقيق أهدافهم – إكمال غزو العراق. وفي الواقع وبغض النظر عن بعض أغلاط القيادة العليا للتحالف وحساباتها الخاطئة ألا أن قطعاتهم التي دخلت العراق كانت بقدرات واستعداد قتالي عاليين مع رغبة قوية بالقتال. والخسائر التي تكبدوها خلال الأثني عشر يوماً الماضية من القتال ليست ذات شأن نهائياً من الناحية العسكرية. لقد ظلت المبادأة بيد التحالف. تحت ظل ظروف كهذه فإن يعلن العراق أو يتحدث عن نصر سريع على العدو فذلك سيربك قطعاته والشعب العراقي معاً، وفي النتيجة سيؤدي ذلك الى إحباط المعنويات والى خفض وتردي القدرات الدفاعية.

أخذ صدام حسين النصيحة الروسية بجدية عالية، وبدأ وعلى الفور إجراء تعديلات سياسية هامة قد تغير مسار الحرب. في صباح ٣١ أذار بدت أولى العلامات الدالة على أن بغداد تعيد التفكير باستراتيجيتها واضحة للعيان: فخلال الليل تحركت عناصر من فرقة بغداد /حرس جمهوري شمالاً عبر[نهر] دجلة دون أن تدمر الجسور (عدم تدمير الجسور بعد ترك المنطقة نهائياً سيكون له عواقب وخيمة على الدفاع العام بكامله) وانفتحت شمال الكوت، بعيداً عن ميدان المعركة. ثم تحركت فرقة نبوخذنصر حرس جمهوري باتجاه جنوب شرق نحو الفلوجة ومن ثم نحو كربلاء من الغرب لتعزيز الدفاع فيها ضد فق مش آلية/٣ الاميركية. وفي الوقت نفسه هاجمت عناصر من فق/١٠١ صولة جوية فرقة نبوخذنصر حرس جمهوري ولكنها لم تستطع إيقاف تقدمها.وصلت قوة الواجب /٢٠؛ وعناصر من فق/١٠١صولة جوية "سدة الهندية" وبعد اشتباك قصير ولكن عنيف للغاية تمكنت من منع العراقيين من فتح أو تخريب السد لإغراق جيب كربلاء. نشطت فق/١٠١صولة جوية قريباً من المسيب بحثاً عن ثغرة أو نقاط واهنة بين مواضع (قواطع) الوحدات العراقية قد تستطيع فق مش آلية/٣ اختراقها في طريقها الى بغداد.

أزمة القيادة العراقية

في ٣١ آذار وفي الوقت الذي دارت فيه كل تلك الإشتباكات كانت القيادة العراقية العليا وعلى الأخص في جيب كربلاء وسط أزمة كبيرة. فخلال ذلك اليوم وصل موفدون رفيعو المستوى من بغداد لملاقاة كبار القادة ومعهم مذكرة مهمة تذكر أولئك القادة بأن

لديهم أوامر محددة وأن عليهم التقيد بها حتى لو لم يسمعوا [شيئاً] من صدام. تقضي تلك الأوامر من حيث المبدأ "الدفاع حتى الموت". لكن ما حدث هو العكس فوصول هؤلاء المبعوثين كان كافياً لإحباط معنويات أولئك الذين واصلوا القتال ببسالة وعزم حتى تلك الساعة. ولم يكن هذا الإحباط دون سبب إذ فسر القادة مذكرة صدام تلك لهم بأن القيادة على وشك الهرب تاركة إياهم ليموتوا لأجل قضية خاسرة.

وفي الحقيقة فقد بدأ بعض كبار الضباط يتبادلون همساً ما لم يجرؤوا أو يخطر على بالهم حتى الأن – أي الإبتعاد عن صدام.

تسلم كبار القادة العراقيين الموجودين في قاطع كربلاء نتفاً مهمة من أخبار جديدة ذلك اليوم ولكن هذه المرة من بعض شيعة الجوار. فخلال عطلة نهاية الأسبوع ٢٨-٣٠أذار وإدراكاً منها لطبيعة وجو الأزمات في بغداد اتخذت طهران قراراً حاسماً بخصوص الحرب الدائرة في العراق، قرار يقضي بعدم التدخل بتحرك الولايات المتحدة لإسقاط نظام صدام. لذلك فقد ابلغت السكان الشيعة بتأجيل "انتفاضتهم" الكبرى المقررة ضد النظام. وفي الوقت نفسه ضغطت ايران كي يمتنع الشيعة عن مساعدة الولايات المتحدة بأي شكل كان وبالذات بعدم الإقرار بشرعية وجودهم في العراق. وفي الأساس اختارت ايران وشيعة العراق الوقوف بعيداً بينما كانت الولايات المتحدة ونظام صدام يسفحان دماء بعضهما البعض، ثم [وبعد انجلاء الموقف] ستطلق طهران القوى الشيعية النشطة للإمساك بالسلطة وطرد الأميركان. لقد وصلت تعليمات طهران الى القيادة [الشيعية] في النجف وكربلاء

في ٣٠ أو ٣١آذار- وقد وصلت هذه التعليمات بنفس وقت وصول مبعوثي صدام آنفي الذكر. استخلص كبار الضباط العراقيين بأن نظام صدام قد انتهى وأن ما من شيء يمكن فعله لنظام يموت – ادراك تسبب بتغيير جذري في الدفاع العراقي لعدة ايام في ما بعد.

يورد الكثير من كبار رسميي الدفاع والإستخبارات العرب والإيرانيين بأنه ونحو ١ نيسان/أبريل اتصل موفدون من مختلف فصائل المعارضة بما فيهم مدعو العلاقات مع الغرب بالعديد من كبار الضباط سواء في جيب كربلاء أو الضواحي الجنوبية لبغداد.أقنع هولاء الموفدون الضباط بالتوصل الى تفاهم مع الإيرانيين من خلال موفدي ايران الموجودين بين السكان الشيعة. كانت الصفقة المقترحة تتماشى مع خطوط الإتفاق الذي تم في طهران بين أحمد الجلبي والحكيم وقادة الكرد عشية الحرب. توصلت ايران في الأساس الى صفقة مع أعضاء من القيادة العراقية العليا[!] تسمح بالإطاحة بصدام على أن يتولى ما سيتبقى من تلك القيادة [العليا] انشاء عراق اسلامي جديد خلفاً لصدام. وأكثر من ذلك ،وبمباركة قادة الشيعة في النجف وكربلاء أجرى عدة ضباط تكارتة مفاوضات سرية في منطقة الفلوجة. كما بحثوا في فرص التنسيق مع عراق اسلامي بعد صدام – ولكن بدون طابع شيعي.

شهد ١/نيسان هجمات وكمائن في مناطق مختلفة من المنطقة الصحراوية غربي العراق وعلى الأخص بالقرب من الحدود السورية يشنها كوماندوز عراقيون. حاولت تلك المجموعات منع وعرقلة دخول وتقدم القوات الخاصة للتحالف. وعلى طول

الطريق الى بغداد اتسم معظم ذلك القتال بطابع هجمات السبر [جس النبض]من الطرفين. فالقوات الأميركية والعراقية ما زالتا بعد تحاولان تفهم الموقف الكلي فيما بدا كمعركة حاسمة ووشيكة في كل الحرب.كثفت الولايات المتحدة قصف بغداد وبالمقابل أطلقت صواريخ (الصمود) على الحشود الأميركية قرب النجف، فقوطع أحدها بصواريخ باتريوت وسقط الأخر في الصحراء دون أن يلحق أذىً بأحد. وبعد زوال مخاطر الفيضان والإغراق احتلت عناصر من فق مش آلية/٣ جسراً رئيساً على الفرات قرب الهندية على مسافة ٥٠ ميلاً من بغداد. كثف القصف الجوي على فرقة المدينة – حرس جمهوري لتسريع تقدم فل/٥؛الى بغداد ، وقد ادعى الأميركان أنهم دمروا نصف تلك الفرقة ألا أن ذلك كان مجرد مبالغات غير موثوقة. وأكثر من ذلك فالقسم الأكبر (الكوكب) من قطعات فق مش آلية/٣؛ مازالت تتخبط وسط الكمائن العراقية وعجزت حتى عن احتلال الجسر. فالفرقة ما زالت تشق طريقها زحفاً ولكن بدأب نحو بغداد.

في هذه المرحلة واصل العراقيون من قطعات الحرس الجمهوري والجيش النظامي المتمركزين على الخط الدفاعي الحلة –الهندية –كربلاء –القتال بعنف. فضلت الوحدات الموت دفاعاً عن صدام ولم تجر سوى انسحابات نادرة لبعض تلك الوحدات فقط. كان التقدم الأميركي هامشياً في أحسن الأحوال برغم شن بعض قطعات فل/٥؛هجمات عنيفة وعزومة في محاولات لاختراق الدفاعات العراقية على حافة المراكز السكانية. كان الإندفاع الرئيس باتجاه المثلث الذي يضم كربلاء والهندية والإسكندرية.كما واصل الأميركان صراعهم لنقل التعزيزات والإمدادات بما فيها نقل

لواء من فق/٨٢محمولة جواً وسط الكثير من الكمائن والإشتباكات والقصف المدفعي على طول الطريق من الكويت. وكانت أشرس جيوب المقاومة في الناصرية والسماوة وأبو صخير والنجف.

لاحظت الإستخبارات الروسية أنه "كي تواصل الوحدات الأميركية تقدمها فقد اضطرت لترك أعداد كبيرة من جنودها وراءها لمحاصرة وتطويق المدن التي ما زالت تحت سيطرة العراقيين". وأكثر من ذلك فإن فق/١ مارين التي يفترض توليها تطويق ومنع وصول التعزيزات من الكوت، ومقاتلة الجناح الشرقي للدفاعات العراقية، مازالت هي نفسها مشتبكة بقتالات موهنة مع قوات عراقية غير نظامية في الديوانية وعاجزة عن الوصول الى الحلة في الوقت المحدد. نجحت قوات مارين أخرى باجتياح دفاعات "قلعة سكر" وواصلت تقدمها نحو الكوت التي ما زالت بعيدة.

في ٢/نيسان قوى فل/٥ سيطرته على الطريق الرئيس الى بغداد لأجل مواصلة تقدمه حتى لو أضطر الى ترك تشكيلات عراقية كبيرة خلفه. وجدت القيادة الوسطى أنها لا تملك قطعات كافية ولا الوقت لمعالجة جيوب المقاومة. وفل/٥ ماضٍ بمواصلة تقدمه الى قلب بغداد على أمل أن يقنع ذلك القطعات العراقية التي تخطاها بالإستسلام حال إدراكها أن الحرب قد انتهت. ولكن القصف الجوي ضد تلك الجيوب سيستمر.و أخيراً كان هذا العمل خطوة ومغامرة شجاعة من قبل القيادة الوسطى اذا تذكرنا سجلها بالاستهانة بالمقاومة العراقية. وقال المبتهج دائماً

ووزير الدفاع دون رامسفيلد لـ CNN بأن لدى القوات الأميركية ضوءا أخضر لاجتياح بغداد وما من خط رجعة للقيادة الوسطى.

في الوقت نفسه اقترب ل١ من فق/ ١ مارين من الكوت، لكنه لم يصطدم بالقوات الرئيسة المدافعة عنها بما فيها فرقة بغداد حرس جمهوري بعد. تسللت وحدات صغيرة من فق مش آلية/٣ بين الدفاعات العراقية في محاولة للوصول الى الطرق المؤدية الى بغداد.اكتنفت جميع هذه التحركات اشتباكات وكمائن وغارات متواصلة. ومع بدء تقدم المارينز نحو الصويرة حيث تقع مقرات كبرى للحرس الجمهوري وتحرك العناصر الأمامية من فق مش آلية/٣ نحو المسيب ومن ثم الى الأسكندرية قلق البعض لدخول هذه القطعات مناطق مزدحمة حيث تغدو صيداً سهلاً للكمائن. ولو تذكرنا ضخامة الوحدات العراقية الموجودة في المنطقة وعلى الأخص تلك المختبئة داخل المدن الشيعية فقد تتعرض الوحدات الأميركية الأمامية للتطويق وبالتالي يمكن تمزيقها ولا وجود لنجدات وتعزيزات قريبة. انكمش فل/٥ بفعل المخاوف الجديدة من هجوم كيمياوي بعد التقاط الولايات المتحدة رسالة من كلمة واحدة (دم) - (Damm (blood)– الى القطعات العراقية. كانت الرياح مثالية لهجوم بالغاز.ومع ذلك أمر فل/٥؛ بمواصلة بل وتسريع التقدم.

في الوقت نفسه حاولت القوات البريطانية يائسة انهاء [قتالات] الإعاقة وهي معارك غير حاسمة في جنوبي العراق. وخلال ليلة ٢٣ آذار اندفع الكوماندوز العراقي من البصرة ونصب كمائن كبيرة للدوريات البريطانية ، وفي ٢٤ آذارأضطرت القوات البريطانية في

المنطقة للانسحاب وإعادة تقويم موقفها وبأساليب قتالها.وقد أورد قائد بريطاني كبير في الساحة: "المقاومة العراقية الشديدة – بما فيها هجمات القوات غير النظامية التي تحاول تطويق المنطقة باستخدام النسوة والأطفال والخداع – تعمل على إجبار القطعات البريطانية على الإنسحاب من البصرة لإعادة التنظيم".

كذلك شنت القوات العراقية في أم قصر هجوماً مقابلاً كبيراً ضد البريطانيين. كانت مفاجأة لأنها وقعت بعد يوم من اعتبار أم قصر تحت سيطرة التحالف تماماً. وبغض النظر عن القصفين الجوي والمدفعي المتواصلين ظلت أم قصر صامدة بأيدي العراقيين ، وأن قوات التحالف –ومعظمها بريطاني – لم تجتح المدينة خوف التورط في حرب مدن وقتال شوارع. وحتى ليلة ٢٤ آأذار لم يسيطر البريطانيون الا على الطرق الإستراتيجية المارة عبر أم قصر ولكن الإشتباكات العنيفة تواصلت في المناطق السكنية.

تصاعدت المقاومة العراقية في البصرة في اليوم التالي حين تقدمت خمسون دبابة معززة بمدفعية ثقيلة خارج المدينة لمقاتلة البريطانيين باتجاه مطار البصرة. كان هجوماً مقابلاً شديداً شن أساساً لمهاجمة المؤخرات البريطانية الخفيفة العمق. ولكن الإسناد الجوي الكثيف وعلى الأخص إسناد الطائرات من على حاملة الطائرات "رويال أرك" والتي دمرت ٧ دبابات بعد مطاردتها بطيران واطئ عبر شوارع المدينة مما أجبر العراقيين على الإنسحاب الى أماكن أمنة وسط الأحياء السكانية المزدحمة.

في تقريرها ليوم ٢٥/ آذار قالت الإستخبارات الروسية GRU عن البصرة: "لم تكن قوات التحالف كافية في تلك المنطقة لمواصلة الهجوم. تركز الجهد على القصفين المدفعي والجوي، ولكن لم يكن لهذا القصف حتى الان سوى تأثير قليل على القدرات والإستعداد القتالي للقطعات العراقية". في الحقيقة كان على القطعات البريطانية أن تنسحب وتغير مواضعها في منطقة البصرة. كان السبب الرئيس وراء هذا الإنسحاب هو المقاومة الشعبية غير المتوقعة في المناطق السكنية. قال الناطق العسكري البريطاني النقيب (الكابتن) باتريم ترومان: "لقد توقعنا الكثير من الإستسلامات ورفع الكثير من الجنود العراقيين أيديهم ، وأن تبدأ عمليات الاغاثة الانسانية بعد ذلك بسرعة لتوفير الماء والطعام بطريقة منظمة. لكن الأمور لم تجر بهذا الشكل مطلقاً". وواصل مضيفاً: "في البصرة كانت هناك عناصر كثيرة تؤيد النظام بقوة. وكنا على الدوام نعتقد أن الجميع في هذه المنطقة يكرهون صدام.ومن الواضح أن عدداً منهم ليسوا كذلك".

عنف في البصرة

وحال صد الهجوم المقابل العراقي تفجر عنف شرس في وسط البصرة. لقد فسرت قوات التحالف الهياج الشيعي بأنها انتفاضة ضد صدام لذا واصلت المدفعية والسمتيات البريطانية مهاجمة المواقع العراقية التي حاولت كبح الثورة الشيعية، ولكنها سرعان ما أدركت بأن السمة الرئيسة وراء هذا الغضب المفاجئ هي: أنه

"غضب وعصيان شيعيان" في البصرة بعد إعدام قوات الأمن البعثية لقائد شيعي يشك بولائه لصدام. ولم يكن هناك أي تعاطف مع الغرب في الإنتفاضة. وعند وصول مفرزة من الكوماندوز البريطانيين الى الشيعة [المحتجين] قتل هؤلاء جندياً بريطانياً. كان القادة البريطانيون يأملون بتشجيع واستغلال الهياج [الشعبي] لتدمير القوات العراقية، وتفعيل التظاهرات والعنف المتأصل ضد النظام ولكن سرعان ما انطفأ ذلك الأمل. وأكثر من ذلك فقد دعى قادة الشيعة في البصرة المواطنين لمقاتلة "أولاد الشيطان" - من أميركان وبريطانيين. ومرة أخرى وكالعادة واصل العراقيون كبح الإنتفاضات الشيعية بغض النظر عن الدعم البريطاني المتواصل.

أسلحة من إيران

أعطت الأنشطة والفعاليات البريطانية قرب الحدود الإيرانية إشارة جيدة عن التطورات الإستراتيجية المقبلة. فقد بدأ قادة البحرية والمارينز البريطانيون تحريك دوريات وشن غارات على طول الحدود لاعتقال العملاء والناشطين [الدعاة]وأفراد القوات الخاصة من الإيرانيين الذين حملوا معهم الكثير من الأسلحة والأعتدة والمتفجرات والأموال وكل ما يتطلبه إثارة عصيان شيعي من مستلزمات. وبعد أن أطلق الإيرانيون النار على الدوريات البريطانية لمنعها من عرقلة أعمال تسلل المرسلين الشيعة ، شنت القوات البريطانية غارات على المواضع الإيرانية لضمان تقليص الدعم والتسلل الإيرانيين. كان العراق كذلك ضد الأنشطة الإيرانية وفقاً لأقوال مراقبين ايرانيين في المكان، فقد "أسقط

العراقيون سمتية ايرانية قرب الفاو بعد مساء يوم أمس (٢٤ آذار) ". كانت تلك السمتية داخل الأراضي العراقية وربما جاءت لإسقاط أشخاص ومعدات وأسلحة لمجاهدين شيعة محليين.

وفي الوقت نفسه توقفت أو تحولت العمليات البريطانية في وحول البصرة الى قتال في مواقع ثابتة. ورد في تقرير الإستخبارات الروسية GRU ليوم ٢٦ آذار ما يأتي: ضربت القوات البريطانية قرب البصرة طوقاً كما في العصور الوسطى لحصار مدينة تعدادها مليونا انسان. دمرت نيران المدفعية معظم المنشآت والخدمات والبنية التحتية لضروريات الحياة كما تواصلت نيران المدفعية ضد مواضع الوحدات المدافعة عن المدينة. كان هدف البريطانيين الرئيس هو إدامة حصار شديد على البصرة.كانت قيادتهم واثقة من أن الموقف في المدينة سيتحرج وتعم الفوضى وأن قلة الطعام والماء والكهرباء ستدفع سكان المدينة الى الضغط على القوات المدافعة واستسلامها.أوضح محللوGRU أن احتلال البصرة بنظر قيادة التحالف مهم بشكل استثنائي ومقدمة لاحتلال بغداد مستقبلاً "دون دماء“blooless ، وحتى الآن لم يتحقق هذا النهج وأن حامية المدينة ما زالت تدافع ببسالة.

ظل الموقف وطوال الأيام القليلة القادمة مستقراً تماماً والعراقيون يسيطرون على البصرة وضواحيها وكذلك على جزء من شبه جزيرة الفاو ، كما لم يكن الحصار البريطاني محكماً بسبب كثرة المياه والقنوات بشكل جعل من المتعذرعليهم تشكيل جبهة واحد. تبادل الطرفان الغارات لتحسين مواضعهما التعبوية. وتحت ستر العاصفة الرملية نجح العراقيون بإعادة انفتاح فوجين

من فق مش/٥١ في الفاو لتعزيز دفاعاتها. وفي اليوم التالي حاول البريطانيون احتلال الفاو لإكمال طوق حصار البصرة. ومع ذلك أجبرت قطعاتهم المتقدمة على طول شط العرب على التوقف بفعل القصف الشديد والكمائن العراقية النشطة.

أخيراً وفي ٢٨أذار وتحت القصفين الجوي والمدفعي المستمرين بدأت القطعات العراقية بالتراجع باتجاه البصرة متخلية عن أقسام من الفاو. لكن في تلك الليلة نفسها أطلق العراقيون صواريخ "سلك وورم" مطورة وبمدى يزيد على ٥٠ميلاً على مدينة الكويت. سقطت الصواريخ في الماء قرب الساحل و رغم ذلك ألحقت أضراراً كبيرة بمركز للتسوق. المهم أن الصواريخ أطلقت من الفاو لتثبت مجدداً كذب ادعاءات التحالف باحتلال شبه جزيرة الفاو. تواصل القصف والكمائن كذلك في أم قصر المحتلة ظاهرياً هي الأخرى.

أكد تقرير الإستخبارات الروسية GRU ليوم٢٩ آذارموقف وحالة سكان البصرة: لم تكن حالة البصريين النفسية ولا معنوياتهم متردية أو حرجة بل كانت عكس ذلك كثيراً.

أذاعت سلطات التحالف نداءات عديدة عرضت خلالها على المدنيين فرصة لترك المدينة. إلا أن معظم السكان رفضوا مغادرتها خوف تكرار مصير اللاجئين الفلسطينيين الذين وبعد أن فقدوا ديارهم لم يحظوا بأكثر من صفة " منبوذ "pariah في أرض العرب [والعالم]. وقد أصيب أهل البصرة بخيبة مريرة وهم يشاهدون أشرطة الفيديو التي تبثها قيادة التحالف والتي تظهر أخوانهم العراقيين في المناطق المحتلة وهم يتقاتلون على نتف

الطعام والماء الذي يوزعه جنود التحالف. وراى أهل البصرة في ذلك بعض ما ينتظرهم لو جاء المحتل الأميركي.

في ٣٠/آذار لم تحقق القوات البريطانية أكثر من تطويق البصرة ، تاركة مجازاً مفتوحاً باتجاه الفاو مما يسمح للعراقيين بالإنسحاب من المدينة [لو أرادوا ذلك]. يرى القادة البريطانيون أن العراقيين مادام ظهرهم الى الحائط فلن يظل أمامهم سوى الإستماتة بالمقاومة ، لذلك قرروا أعطاءهم منفذاً للإنسحاب. ولكن لم يحقق الحصار البريطاني اية نتيجة في النهاية ألا بعد شن الكوماندوز المارينز الملكي "عملية جيمس "James لاحتلال أبي الخصيب الى جنوب البصرة للقضاء على قيادة البعث.

في الوقت نفسه شن العراقيون هجوماً على قنال البصرة (تعرف بنهر صدام أيضاً) لتدمير زوارق الإنزال البريطانية.أغرق كوماندوز المارين زورقاً عراقياً بصاروخ مسير ضد/دب وتواصلت الإشتباكات والكمائن والتراشق المدفعي حول المدينة بطولها. ومع ذلك لم يفكرالعراقيون باستخدام الممر[الذي تركه لهم البريطانيون للفرار]مفضلين البقاء والدفاع عن المدينة برغم تردي الموقف. أبدى العراقيون مقاومة شديدة للغاية وفشلت جميع محاولات البريطانيين مرة بعد الأخرى لاختراق دفاعاتهم على طول شط العرب. استنتج البريطانيون أن لابد من جلب تعزيزات كبيرة قبل اجتياح البصرة ، وهو قرار لم ترتح له لندن ابداً. وبانتظار وصول التعزيزات أقام البريطانيون ترتيبات دفاعية حول البصرة في محاولة منهم لإدامة وتضييق الحصار من جهة ولتجنب المزيد من الخسائر من جهة أخرى، كما واصلوا شن هجمات محلية

محدودة مع مواصلة الضغط على المواضع العراقية في شبه جزيرة الفاو.

المعارك البريطانية

في اليوم التالي ٣١ آذار دفعت القوات البريطانية خطوط الدفاع العراقية في شمال شرق البصرة بعيداً الى الخلف نحو شط العرب. وفي الغرب أجبر الهجوم البريطاني من مطار البصرة العراقيين على التراجع عدة شوارع داخل المدينة. ومع ذلك فشلت محاولة القوات البريطانية التقدم بمحاذاة شط العرب وتقسيم البصرة الى شطرين وعزل البصرة عن الجزء الآخر الذي بيد العراقيين من شبه جزيرة الفاو. استمرت الإشتباكات المحلية على طول منطقة البصرة في ١/نيسان/أبريل.وحاول البريطانيون احتلال قضاء الزبير وسوق الشيوخ تحت قصف مدفعي واسناد جوي شديدين، ولكنهم أجبروا على العودة الى مواضعهم الأصلية. وطوال اليومين التاليين استأنف البريطانيون جهودهم لاختراق دفاعات البصرة، وحاولوا شن عملية تطويق برتلين: الأول من شمال شرق مطار المعقل وعلى طول شط العرب، والثاني من جنوب غرب الزبير ونحو مدينة الزبير.كان التقدم البريطاني بطيئاً للغاية وفشل فشلاً ذريعاً حتى باختراق النطاق الخارجي للدفاعات العراقية. وفي ٤/نيسان سيطرت القوات البريطانية على الطريق الدولي البصرة – الزبير وأنشأت مواضع لمدفعيتها ومراصد لمراقبة الجانب الآخر للنهر.

واصل البريطانيون تقدمهم المتعثر يوم ٥ نيسان ودفعوا الدفاعات العراقية ببطء عن مواضعها الأصلية. ومع ذلك لم يستطع البريطانيون حتى آنذاك اختراق الخطوط الدفاعية الرئيسة ، ودار قتال ضارٍ للغاية على حافات البصرة. ولكن بهجوم عزوم شنته خمس كتائب بريطانية يوم ٦/نيسان وأستمر فيه قتال شرس طوال(٦) ساعات نجح في النهاية بإنهاء المقاومة العراقية المنظمة. وفي نهاية ذلك اليوم أصبحت القوات البريطانية تسيطر على المدينة اسمياً ما عدا بضعة جيوب مقاومة عنيفة وعلى الأخص في العشار وجوارها بمحاذاة النهر وبعض قواطع المدينة بما فيها مقرات المخابرات وحزب البعث ومحافظة البصرة.

في ٧/نيسان أعلن البريطانيون أنهم أحتلوا البصرة نهائياً. واستقر الموقف بسبب توقف سكان المدينة عن مواصلة المقاومة القوية وعلى طول المدينة ، ومرة أخرى ذابت القطعات العراقية مع معظم أسلحتها ومعداتها قبيل دخول الإنكليز المدينة. وطوال اليومين التاليين كان العراقيون قادرين على توسيع أنطقة وجيوب مقاومتهم في منطقتي العشار وأقسام من رصيف شط العرب. لكن البريطانيين رفضوا في الأساس زج قواتهم في حرب مدن طويلة وعالية الخسائر وباهظة التكاليف لمجرد إخماد تلك الجيوب. لكن في ٨ نيسان استطاع البريطانيون من شن عدة هجمات محلية لتقليص حجم وشدة تلك الجيوب. وخلال الليل أخلت عدة وحدات عراقية مواضعها أما لأنها تركت المدينة أو اختفت بين السكان المدنيين. وفي نهاية الشهر عادت عمليات المقاومة النشطة والأرهاب وحركات العصيان الشديدة على طول جنوبي العراق.

آراء

في أول ايام شهر أبريل/نيسان تقدمت القوات الاميركية شمالاً نحو بغداد ولكن على جبهة ضيقة ، إذ مازال الموقف في العاصمة لصالح المدافعين.لاحظ مسؤولون عرب وأجانب متداخلين مع العراقيين عزم هؤلاء على مقاومة الغزو الأميركي بشدة. كانت المعنويات في المدينة عالية جداً، وظل العسكريون مخلصين لصدام ومستعدين للقتال دفاعاً عن العاصمة.

أستعيدت هذه الذكريات والإنطباعات بعد الحرب من قبل عميد عراقي كان مختبئا في بغداد فأوضح قائلاً: ”كنت قائد فرقة.. وكنا على حافات بغداد ، وكان واجبنا ابطاء تقدم الاميركان لأعطاء الحرس الجمهوري ومليشات الفدائيين الوقت الكافي للإستعداد وتنظيم أنفسهم للمعركة الفاصلة “. بعدها عاد العميد ليؤكد أن معنويات جميع العراقيين كانت عالية.لقد هددنا أقوى جيش في العالم. فصمم الجميع على القتال، وقررت وزارة الدفاع تسليح ٢٤ مليون مواطن.لقد صممنا على القتال حتى النهاية.ولأننا نقاتل في بيوتنا [دفاعاً عن ديارنا] وهذا سيقودنا الى النصر“ .

اتفق ضابط مخابرات مع هذا الوصف المفصل مؤكداً أن بغداد وبنظر جميع المؤسسات الدفاعية العراقية أصبحت قلعة. ولن يستطيع الأميركان الأقتراب منها - ونحن واثقون من ذلك.

وافق الخبير العسكري المصري ذو الخبرة الطويلة مع القوات العراقية المسلحة الفريق سعد الدين الشاذلي [رئيس الأركان العامة المصرية خلال حرب ١٩٧٣] متوقعا هو الآخر أن يبدي المدافعون "مقاومة باسلة" ضد الغزو الأميركي. وفي نيسان ؛ تنبأ الجنرال الشاذلي بفشل قوات التحالف احتلال بغداد قائلاً " أعتقد أن معنويات الشعب العراقي والجيش على أعلى مايمكن وما لا يعرفه الكثيرون فإن العراقيين يقاتلون من أجل الوطن والكرامة والشرف وأعتقد أن هذه وحدها تكفي للصمود والتضحية بكل شيء.أعرف أنها حرب غير عادلة ولا نظيفة؛ ولكنها حرب خاسرة للتحالف".

أوضح الشاذلي كذلك أن الإستراتيجية العراقية تركزعلى حفظ القوة الجوية وحصر القتال والمعارك داخل المناطق المأهولة. وأكد الشاذلي بأن " الحرب لا يمكن أن تحسم الا بالقوات البرية في النهاية ".ومضيفاً "لا يمكن اجتياح بغداد الا بالقوات البرية لا بالقوات الجوية. لقد حاولوا احتلال الناصرية ومدن صغيرة أخرى لكنهم لم يحاولوا دخولها لإدراكهم بأنهم سيدخلون الجحيم."

الدفاع عن بغداد

استند الدفاع عن بغداد على مرحلتين.الدفاع الخارجي وتتولاه (٦) فرق حرس جمهوري ومجموعة متنوعة من وحدات الجيش النظامي.كانت (٤) من فرق الحرس الجمهوري في القسم الجنوبي لبغداد وعلى طرق تقدم الأميركان بينما انفتحت فرقتان (عدنان ونبوخذنصر) شمال بغداد. أما الفرق الجنوبية فهي فرقة المدينة

جنوب غرب بغداد ، وفرقة بغداد جنوب شرق بغداد ، وحمورابي الى الشرق ، وفرقة النداء الى الغرب.مركز الدفاع كان نخبة القوات الخاصة –الحرس الجمهوري (٢٥) ألف جندي والفرقة الذهبية. تتألف الفرقة الذهبية من اربعة الوية تعززها كتيبتا دبابات من الحرس الجمهوري، الاول انفتح حول القصور الرئاسية وسط بغداد ، وانفتح الثاني في باقي العاصمة ، والثالث انتشرت معظم قطعاته شمال بغداد ويعمل كقوة انتشار سريع وقوة تعزيز ستراتيجية مع اللواء الاخير.

في أواخر أذار/مارس جهز جميع منتسبي الحرس الجمهوري بملابس مدنية مع مخابئ طوارئ ، ومخابئ مخفية للأسلحة لكي يتمكنوا وبسرعة من تحويل الدفاع عن بغداد الى حرب عصابات. يصل تعداد القوات الإضافية و التعزيزات في بغداد نحو (١٠٠) ألف والكثير منهم من عناصر الإستخبارات وللكثير منهم خبرات قتالية عالية في التصدي لأية ثورات وتحركات ضد صدام. ونحو ٤٠ ألفاً من رجال الشرطة. هذا وشكلت الإستخبارات/ المخابرات مجوعات [مكافحة الشغب] بحدود عدة آلاف للدفاع عن بغداد ، وهناك أيضاً مليشيات البعث وهم بحدود ٣٠ ألف عنصر نشط ، وقوات الامن الخاص وهي قوة نخبة بحدود ٥ آلاف شديدو الولاء لصدام وللتكارتة. هناك كذلك فدائيو صدام بقيادة عدي – ويعملون كلية خارج نطاق وسيطرة الدفاع العسكرية وتضم قوتهم بحدود٤٠ ألف عنصر بما فيهم (مفارز) الموت المسؤولة عن ضبط وضمان اخلاص جميع الوحدات والقطعات في بغداد الكبرى. وأخيراً هناك مئات الألوف من بندقيات الصولة والمدافع الرشاشة

وقاذفات RBG ومن بين متسلمي الأسلحة كثير من كبار السن ممن شاركوا في الحرب ضد ايران.

تولّي قصي الزمام

ومع أن مختلف القطعات التي تجمعت في بغداد تبدو متشوقة للدفاع عن العاصمة الا أن الجالسين في أعلى الهرم لا يشاطرونهم حماسهم ولا عزائمهم. ففي ١/نيسان بدأت حلقة صدام المقربة جداً تتفكك تحت ضغوط الحرب. ولعل أوضح دلائل الإعلان عن ذلك التردي المتزايد هو قرار تسليم القيادة المباشرة للحرس الجمهوري في ٢/نيسان الى قصي صدام حسين. لقد تولى قصي زمام الأمور بسبب تزايد انعدام ثقة صدام بقياداته العسكرية العليا. ولكن قصي هذا المغرور وغير المهيأ للقيادة العسكرية سرعان ما نفّر وأغاض جميع الحلقات [القدمات والقيادات] التي بأمرته بما فيهم غير المشكوك بولائهم من الضباط.ووفقاً لآراء بعض الجنرالات والعقداء فقد أصدر قصي أوامره الى وحدات عسكرية من اختصاصات معينة "برغم عدم امتلاكه لأية خبرات عسكرية“.

وفي واحد من سلاسل أوامره العديدة أنه دفع بالآلاف من الجنود، وعلى الأخص من فرقة حمورابي حرس جمهوري الى مناطق مفتوحة حول بغداد. ووفق أوامر قصي تحركت قطعات الحرس الجمهوري تلك برتلين نحو كربلاء والى الجانب الآخر من الفرات وتركهم معرضين للغارات الجوية الأميركية الوحشية التي قتلت معظم منتسبي تلك القطعات.كانت تلك الأوامر التي يعتقد

الضباط أنها صدرت بموافقة ومباركة صدام نفسه قد أضعفت الدفاع عن بغداد كثيراً. وبينما كانت القوات الأميركية تقترب من بغداد قرر العديد من القادة آخذين بالحسبان ما انتهت اليه الأوضاع حماية قطعاتهم وإعادة انتشارها بمعرفتهم هم بدلاً من تعريضها للقصف الجوي المروع.

وبعد أن تغلغلت الشكوك الى نفوس كبار الضباط في كل من كربلاء وضواحي بغداد بدأت مقاومة القطعات تقل وتتلاشى تدريجياً هي الأخرى، ولم تعد تشن الغارات والكمائن ضد التقدم الاميركي الا نادراً وبحمية وحماس أقل عن السابق. بدأت التشكيلات الكبرى تنسحب الى داخل المدن مع القليل أو حتى دون قتال ولا نيران كما تراجعت قطعات مهمة بعيداً عن الحشود الأميركية. لم تقدم أية تفسيرات أو تبريرات لهذه التطورات كما لم تجر اية اتصالات أو تصدر أية توصيات وتوجيهات واضحة أو معروفة أو وصلت الى علم الاستخبارات الأميركية أو غيرها.

وبعد الهجوم الأميركي على كربلاء أوضح تقرير الإستخبارات الروسية GRU في ٣/نيسان: "جاء الهجوم مباغتاً للقيادة العراقية فكانت النتيجة أن فقدت المقرات العراقية (في كربلاء) معظم منظومات اتصالاتها ففقدت بالتالي سيطرتها ولو جزئياً على قطعاتها، ما أدى بالتالي الى تشتت القطعات التي كانت منفتحة على خط هجوم التحالف وفقدت تماسكها ولم تعد بالتالي قادرة على إنجاز مهامها الدفاعية."

بعد ادراكه لتزايد التوتر والضغوط وعدم الرضا بين كبار جنرالات القيادة العليا ، ومع تزايد الموقف سوءاً دعى قصي الى اجتماع عاجل لقادته المرؤوسين صباح ٣ نيسان. وقد أدى هذا الإجتماع الى تردٍ شديد في العلاقة بين صدام وقصي معاً من جهة والقادة العسكريين من جهة أخرى. لقد حضر قصي مرتدياً بذلة ورباطاً مدنيين بدلاً عن البدلة العسكرية وتحيطه عناصر حمايته الشخصية ، ثم [ويا للغرابة] وبخ قصي كبار الضباط الحاضرين.

ما فعله قصي

قال الجنرال علاء عبد القادر قائد منطقة بغداد للحرس الجمهوري لروبرت كولليز من سان فرانسسكو كرونيكل: "لقد لامهم قصي لخسارة الحرب" برغم أن الجنرال علاء هذا تجنب حضور هذا الإجتماع بنفسه بل أناب كبير مساعديه حضوره، والذي أوجز مجريات الإجتماع له في ما بعد. وأضاف " "بكى أحد كبار القادة ومن ثم قال "لقد قتل أفضل جنودي".

أكد العقيد خالد الطائي التأثير المدمر لذلك الاجتماع الذي حضره على إستعداد القيادة العليا للقتال. قال لروبرت كولير: "لقد اصابنا الغثيان بسبب ما فعله صدام وقصي"وأضاف: "لقد تحدثنا فيما بيننا واتفقنا على: أن من يريد مواصلة القتال فليقاتل كما يشاء، وسنقاتل من أجل مستقبلنا ومن أجل أولادنا ولأجل العراق ولكن ليس لأجل قصي ولا حتى لصدام ، أو أن بوسع من شاء الذهاب الى بيته ."

باتت قوات التحالف تتقدم الآن بسهولة مشوبة بحذر. وفي ٣ نيسان وصلت وحدات المارينز الأمامية الى ناحية العزيزية الواقعة الى ٤٥ ميلاً جنوب بغداد بوجه مقاومة قليلة أو حتى دون مقاومة.أما في الغرب [ذراع الكماشة الغربي] فقد وصلت الوحدات الأمامية الاميركية مواضعها على مسافة ٢٥ ميلاً من بغداد. لقد تقدمت تلك الوحدات على عدة محاور قادتهم بعيداً عن مواضع ودفاعات تشكيلات عراقية كبيرة ويصعب عليها الآن القيام بعمل ما. ووصلت عناصر أخرى جسر المسيب ٣٥ ميلاً عن بغداد دون مجابهة أية قتالات جدية أو مصاعب. كذلك لم تواجه القوات الخاصة الأميركية مصاعب جدية عند تسللها الى ضواحي بغداد.

بعد مقابلتهم قصي بدأ كبار الضباط العراقيون يفكرون جدياً بالتعاون مع الولايات المتحدة. لقد خلصوا الى أن كل شيء ضاع وانتهى وبات عليهم تقليل مساوئ المصير الذي ينتظرهم حال احتلال الولايات المتحدة بغداد. لقد أرادوا كما يبدو استغلال علاقاتهم واتصالاتهم المعقدة مع الإستخبارات الأميركية، ففي عشية الحرب بدأت CIA وزميلاتها من خدمات استخبارات التحالف حملة إفساد وإرشاء ، وما بدأ كقطرات في كانون ٢/يناير واقتصر على المناطق القريبة من الحدود الكويتية أصبح الآن وفي أواخر أذار وبعد بداية اندحار النظام العراقي سيلا. فمن أقام اتصالاً مع وكالات الاستخبارات الغربية بدأ بجلب زملائه وغيرهم من القادة للإنضمام الى الترتيبات التالية وليحصل على مكافآت أكبر.

اتصالات

لقد عقدت الولايات المتحدة شبكة من الإتفاقيات مع القوات المحلية وعلى الأخص على المقتربات الشرقية الى بغداد متوقعة انهياراً عاماً وسريعاً للدفاعات العراقية حال اندلاع الحرب. ومع أن مبالغ طائلة صرفت فقد فشلت الصفقات تماماً ولم تؤد الى نتيجة ما. اتضح ذلك من عجز قوات المارين عن دخول أو اختراق دفاعات العمارة ومن ثم النفاذ منها نحو الكوت بسبب المقاومة العراقية الضارية.وفي جميع تلك الترتيبات آنفة الذكر وعد الاميركان بعدم ملاحقة القادة بعد المعارك شريطة عدم تورط أولئك القادة بجرائم حرب من أي نوع وفي أي تأريخ. ولكن لعدم تأكد العراقيين حول ما إذا كانوا سيحظون بالأمان في عراق ما تحت السيطرة الاميركية لم يوافقوا في النهاية على تبديل ولائهم. ومع ذلك ففي ٣ و٤ نيسان أعيدت بعض تلك الإتصالات فجأة ولكن العراقيين هذه المرة أرادوا المضي فعلاً فيما وافقوا عليه.

جرى الاتصال المثير والأكثر أهمية بالجنرال وكيل مسيري [٣] صهر علي حسن المجيد. وقد توصلت CIA الى جنرال عقيل (أو وكيل)

---

[٣] لا يوجد جنرال بهذا الإسم ولا حتى بشبيه أو قريب لهذا الإسم، ولعله من باب المعلومات الخاطئة التي حاول البعض من خلالها تضليل قوات التحالف (كجزء من خطة مخادعة استراتيجية) أو أستغلالهم لمنافع شخصية. لم تؤيد جميع المعلومات الواردة هنا عن الجنرالات سفيان وحسين رشيد وجليل طاهر حبوش ولم يكن بوسعي سوى الترجمة بأمانة آخذاً بالحسبان التشوش الهائل في العراق أيامها (المترجم) .

عن طريق عزالدين المجيد ابن أخ علي حسن المجيد والمقيم في لندن [حتى وفاته].لم يكن للجنرال عقيل منصب قيادي ولكنه من مجموعة جنرالات تعد الأقرب الى صدام وموضع ثقته لتنفيذ مهمات خاصة جداً بما فيها مهام الأمن الداخلي ومهام دقيقة للغاية في الخارج. وعد جنرال عقيل أو وكيل [هذا!؟] باقناع أو "أن يجلب معه" فرق المدينة وحمورابي والنداء ونبوخذنصر، وكلها من من فرق الحرس الجمهوري المدافعة عن بغداد. ومع ذلك فإن جميع من اُتصل بهم من الضباط كانوا على قناعة بأن اخلاصهم وولاءهم لصدام موضع اختبار دائم من قبل فدائيي صدام لذا كانوا يتصرفون وفق ذلك. ويبدو أن جنرال عقيل نفسه لم يلتزم بالتعاون مع المحتلين كلية حتى انهيار وحدات الخط الأول العراقية. وقد وجهت القوات الخاصة غارتين جويتين خصصتا لقتل علي حسن المجيد (وقد فشلت الغارتان رغم اقترابهما من تحقيق الهدف المرجو) .كما حظيت الإشاعات التي ترددت عن فرار صدام من بغداد بشيء من الجدية والإقناع. واخيراً وبعد اجتماع قصي بالقادة يوم ٣ نيسان أصبحت اتصالات جنرال عقيل أكثر جدية.

كان تحويل ولاء وقناعات جنرال ماهر سفيان التكريتي – أحد أحب أبناء عمومة صدام اليه والذي يشبّه البعض بـ"ظل صدام" – هوأكبر انجازات جنرال[عقيل!؟].عين جنرال ماهر سفيان لنيله ثقة ومحبة صدام لقيادة "الحرس الجمهوري" في منطقة بغداد وبهذا بات الحلقة الأهم في الدفاع عن بغداد. تميز جنرال سفيان هو الآخر وأولاده بالوحشية والقسوة. تضم حلقة جنرال سفيان المقربة اليه كلاً من رئيس استخبارات الحرس الجمهوري الجنرال

طاهر جليل حبوش (كان رئيس جهاز المخابرات) وجنرال حسين رشيد التكريتي الذي يعمل ولده سكرتيراً شخصياً لقصي.وعن طريق هذا السكرتير عرفت مجموعة سفيان بغضب قصي وعزمه على عزل كبار القادة الذين حملهم مسؤولية التخبط والفشل العسكريين. ونحو ٣ نيسان قرر جنرال سفيان و مجموعته أن صفقة مع الأميركان هي الشيء الوحيد القادرعلى انقاذهم من تحمل الحساب ومسؤولية انهيار الحرس الجمهوري. وخشوا من أن بقاء النظام أو حتى استمرار سيطرته على بغداد لبعض الوقت فإنهم و قادة آخرون سيعدمون لأبعاد مسؤولية الأخطاء والتخبط المأساويين عن قصي وأدائه.قرر جنرال سفيان الإتصال بجنرال عقيل لتنشيط اتصالاته مع الأميركان واستعداده الى تسليم بغداد في الوقت والظرف المناسبين.

فوضى

كانت القيادة الوسطى وحتى آنذاك ما زالت تتمعن في عواقب الهجوم على بغداد.لقد تقدم الاميركان بجميع قواتهم البرية الى الأمام ، بينما ظل نحو من ١٠٠ ألف من الوحدات النظامية والفدائيين العراقيين يقاتلون خلف الخطوط الأمامية للتحالف.اتفق الخبراء العسكريون الأميركان والبريطانيون على أن يكون الهجوم على بغداد بكماشة متعددة الأذرع على أن تشن تحت مظلة كثيفة من الضربات الجوية.كانت الغاية هي تقسيم بغداد الى عدة قواطع او مناطق حرب، ويجب أن يكون القتال شديداً وطويلاً بعد فشل ترتيب استسلامٍ منظم للقوات العراقية. وقال جنرال ستانلي مككريستال، نائب مدير العمليات في هيئة

الأركان المشتركة [والمسؤول المباشر ومنسق عمليات القوات الخاصة ودوائر استخبارات التحالف مجتمعة في العراق فيما عرف بالحرب السرية والذي تسلم قيادة القوات الأميركية في أفغانستان قبيل أحالته على التقاعد]في ٣/نيسان: "لا نتوقع دخول بغداد فجأة أو أن نحتلها بطرفة عين أو أي شيء كهذا" ومضيفاً "واستناداً لذلك سنتنبه بقوة الى قدراتهم الدفاعية على الأرض فقد يتحولون الى مدافعين شرسين عن الأرض فجأة ."

في ٤/نيسان حُشدت ٣ آلاف عجلة قتال أميركية للصولة النهائية على بغداد بعد أن قطعت مسافة تزيد على الـ ٦٥ ميلاً في ٣٦ساعة. وبينما كان الأميركان يتجمعون تفاقمت الفوضى بين القطعات العراقية داخل المدينة وعلى الأخص تلك المنتشرة وسطها. كانت بعض الوحدات تتحرك على غير هدى وبدون مهمة محددة أو حتى بتخويل من قياداتها العليا ، وأوقفت بعض الأفواج والسرايا دباباتهم وعجلات القتال الأخرى كيفما اتفق وجلس الجنود بانتظار وصول الأوامر .

معركة المطار

لم تكن هناك مقاومة منظمة لكن استمرت بعض الاشتباكات المتقطعة بوجه الوحدات الأمامية الاميركية على حافات مطار صدام الدولي. في مساء ٤ نيسان حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ وبينما كان يتوقع أن تتولى قوة من الحرس الجمهوري قوامها(٧٠) ألف جندي الدفاع عن مقتربات جنوب بغداد اختفت هذه القوة أو ذابت هكذا وبكل بساطة. وما وراء هذه الألغاز المحيرة

والفعاليات المتضاربة أحياناً أعلن تلفزيون بغداد يوم ٤/ نيسان عن الخطاب الذي طال انتظاره لصدام. وكما كان في آخر خطبه ظهر صدام مرتاحاً وواثقاً من نفسه، ولكي يؤكد أنه لم يهرب من العراق زار قطعاته في المطار وشد من عزمهم في مواصلة القتال. ووفقاً لأقوال أحد ضباط صف من مقاتلي الحرس الجمهوري الذي كان في المطار وقتها، فقد وصل صدام في سيارة نيسان بيضاء ترافقه دراجتان ناريتان فقط ومجهزتان بمدافع رشاشة. تسلق صدام ببذلته العسكرية سقف السيارة وخاطب القطعات ممسكاً بيديه مكبر صوت يدوي. ويذكر ضابط الصف ما قاله صدام: "إن كنتم تريدون الحياة فاذهبوا الى بيوتكم. ومن يتحدى الموت فليأتي معي". ثم تابع قائلاً: "لم يترك ولا واحداً منا مكانه". بعدها عقد صدام اجتماعاً لمدة ١٥ دقيقة مع الضباط.

تحشد لواء القوات الخاصة/٢٦ وهو الحرس الشخصي لصدام في مطار صدام الدولي منذ٣/نيسان، ولم تتضح مهامه بعد إن كان لحماية صدام أو جمع لواجب آخر. مع ذلك ففي ما بعد ظهيرة ذلك اليوم بدأت الطلائع الاميركية تدخل المطار. أقاموا في البداية مرصداً صغيراً في الجانب البعيد من المدرج الرئيس وعن القوات العراقية.

وفي أواخر ذلك اليوم أظهر تلفزيون بغداد صدام حسين وهو يتجول في شوارع بغداد وقد راقب آثار الدمار الذي أحدثه القصف ومختلطاً بالجماهير. وفي المساء هدد مسؤولون عراقيون بشن عملية كبرى خلال الليل على المطار، وستستخدم فيها قنابل مميتة

وأسلحة غير تقليدية. (مسؤولون؟ إنه محمد سعيد الصحاف ليس الا) .

وفي الحقيقة دار قتال ضارٍ في تلك الليلة في منشآت المطار، فقد هاجمت قوة مختلطة من(٣) أفواج من الحرس الجمهوري ومجاهدون – بينهم بعض الإنتحاريين –الأميركان ودفعوهم بعيداً عن مباني المطار. دار القتال من مديات قريبة واستمر لـ (٦) ساعات تقريباً. وقد وصف ضابط الصف القتال الذي دار في مباني المطار والأحياء السكنية المجاورة بالشديد ونجح العراقيون فيه من تكبيد الوحدات البرية الأميركية خسائر ثقيلة لكنهم تكبدوا بدورهم خسائر مماثلة بسبب القصف الشديد ، وعلى الأخص حين ألقت الطائرات القنابل العنقودية المحرمة دولياً. أكد شهود عيان عراقيون أن صدام حسين قاتل بنفسه دفاعاً عن المطار سوية مع منتسبي ل/٢٦ قوات خاصة .

حافظ العراقيون على مواضعهم حتى نهار اليوم التالي، كما حافظ الأميركان على مجمعهم كذلك ، وواصلوا مهاجمة العراقيين. ومع طلوع النهار أجبر القصف الجوي وهجمات القوات البرية للتحالف العراقيين على الإنسحاب من معظم مباني المطار. في ذلك اليوم كان لواءان نظاميان ونحو ٢٠٠٠ من مليشيات البعث والمجاهدين يقاتلون ضد أقل من ألف جندي أميركي في المطار.

خلال ٥/نيسان دخلت بغداد ٢٥/دبابة و٢٠/عجلة برادلي (عجلة قتال مشاة) وجميعها من قطعات فق مش آلية/٣ بغداد لأسباب استراتيجية، وكذلك لإظهار واستعراض سيطرة الأميركان عسكرياً.

تقدمت الوحدة من الجنوب و اندفعت على طريق حلة – بغداد الى جامع (أم الطبول) ثم استدارت في الساحة نحو مطار صدام الدولي (الطريق الرئيس الى مطار صدام الدولي) .وبهذه الغارة (الغزوة) مرت هذه القوة من حافات مزرعة الدورة ومجمع اليرموك اللذين يخفيان تحتهما مخابئ ومجمعات سرية تحت الأرض ، كذلك من قرب مجموعات من الحرس الجمهوري التي تجمعت عند الحافات الجنوبية للمدينة ، وقد خاضت الدورية بضعة اشتباكات لكنها واصلت تقدمها.

وبينما كان الرتل الأميركي يتحرك خلال المدينة وبكامله تقريباً ودون حوادث فجر انتحاري نفسه قرب المطار، وسمع قصف مدفعي شديد جداً على كل بغداد. تواصل الهجوم الأميركي في مركز المدينة ضد بقايا الحرس الجمهوري ، كذلك تواصل قتال شرس في المدن التي اكتفت قوات U.S بتطويقها بينما واصلت اندفاعها الى بغداد. وفي ٥ نيسان لاحظت تقارير الاستخبارات الروسيةGRU "انتشاراً غير اعتيادي لقوات برية عراقية وكانت تلك المجموعات المتفرقة (يضم أكبرها ما يصل الى ١٢ألف جندي) تشكل تحركاً مسبقاً لهجوم مقابل عراقي ولكن التفوق الجوي للتحالف أجهض المشروع ."

مع ذلك أعتبر القتال حول ولأجل المطار سابقة مهمة وعامة. وأكد ضابط عراقي برتبة عميد الأهمية الحاسمة للمعركة كنقطة تحول في الحرب. لقد كان هذا العميد مقتنعاً بأن "جنرالاً ما باع بغداد للأميركان". وصف العميد السياق الإجمالي للأحداث التي قادت الى الأمر بالتخلي عن كل شيء وصفاً حيوياً ودقيقاً: "قاتلنا

طوال ١٨/يوماً؛ولكن كان لخسارتنا المطار تأثير حاسم.كانت الأوامر التي نتسلمها مشوشة ومتناقضة لأسباب ليس أقلها أن صداماً وضع ولده قصي الذي لا يعرف شيئاً عن الاستراتيجية العسكرية على رأس سلم القيادة. وفي مناسبتين أمر قصي بتحويل عدد من الفرق من شمال بغداد وفي كلتا الحالتين دمرت تلك القطعات. سادت الأيام الأخيرة فوضى عارمة.كانت المدينة تستعد للدفاع عن نفسها: خنادق، أنفاق، تحصينات وأكياس رمل. ومع ذلك بدأت الشكوك تساور سكان المدينة ، ولم يفت ذلك صدام فهو (داهية) . لقد خرج يتمشى على عادته، وأكثر من ذلك فقد قاتل في معركة المطار. لقد صمدنا ١٢ ساعة ثم انسحبنا ورأينا المئات من البنادق المتروكة مع حقائب الظهر والبدلات العسكرية على طول الطريق الى بغداد.لقد جلب العسكر معهم ملابس مدنية وحين سمعوا بسقوط المطار غير معظمهم أرديتهم".

أين توجهت ؟

في ٥/نيسان لم يظهر صدام لإلقاء خطابه التلفزيوني المنتظر وقرأ أحد المذيعين ثانية رسالة صدام. وبينما تواصل القصف المدفعي في الليلة الماضية على منشآت المطار لم يشن الهجوم المقابل العراقي المنتظر. ومع ذلك أفادت مصادر استخبارات روسية بأن: مجموعة من [قطعات] الحرس الجمهوري ووحدات أخرى من الجيش النظامي في منطقة تكريت تحركت الى سوريا بحركة جريئة ضمت ٣٠٠ دبابة و١٠٠ قاذفة صواريخ متعددة السبطانات GRADيحمل الكثير منها قنابل كيمياوية بما فيها ترسانة أسلحة

دمار شامل. وأفادت مصادر لبنانية حسنة الإطلاع بما يجري على المنافذ السورية الشرقية وصول الرتل.

ووفقاً ل(دبلوماسي) سابق وذي خبرة عميقة بالعراق وكان في بغداد وقت الغزو فقد رافقت الرتل وللحماية دبابات ابرامز وعجلات قتال أخرى مسروقة وتحمل علامات تمييز صديقة [للتحالف]. في الحقيقة لقد طافت عدة سمتيات أباشي حول الرتل وحين رأت دبابات أميركية وبعلامات واضحة أعلى العجلات تلك لم تفتح النار. [بل حتى لم تتساءل عن وجود هذا الرتل الأميركي هنا !]. دخل الرتل العراقي سوريا في الصباح دون اية خسائر. أصر الدبلوماسي الروسي السابق ومسؤولون عرب يعيشون في العراق بأن صدام حسين وولده قصي وجميع الأعضاء الرئيسين في مجلس قيادة الثورة قد ذهبوا الى سوريا مع الرتل. ومع ذلك ولتكذيب تلك الإدعاءات أظهر التلفزيون العراقي صداماً وهو يتجول في شوارع بغداد، ومن ثم ألقى خطاباً آخر يوم ٦/نيسان.ولأن الشواهد أثبتت أن صداماً باق في بغداد فلا بد أن قصياً كان في الرتل!

في تلك اللية وصلت معلومة عن هرب صدام من بغداد ومرافقته لرتل الدبلوماسيين الروس.كان السفير الروسي في بغداد فلاديمير تيتورينكو يقود الرتل الى دمشق لإخلاء دبلوماسيين من روسيا ومن كومونويلث الدول المستقلة. لقد أبلغت U.S مسبقاً بخطة الإخلاء، وبرغم إلحاح الأميركان على أن يسلك الرتل الطريق الآمن الى عمان أصر الروس على الذهاب الى دمشق. وخلال تنظيم وترتيب الرتل وصل صدام الذي تنكر بشكل جيد وحين رأى

الدبلوماسي السابق الذي سبقت له معرفته لوقت طويل حياه بمودة. رأى [المسؤول] الرسمي صداماً يركب إحدى السيارات. رافقت سيارة صدام الرتل الروسي ولكنها انفصلت عنه تحت جنح الظلام واختفى خارج بغداد. (كان الدبلوماسي السابق على قناعة بأن صدام سابق الريح بسرعة ليلتحق بالرتل العراقي الذاهب الى سوريا) .

اعتذار أميركي

بعد قطع الرتل الروسي مسافة ٢٠ ميلاً في الصحراء هاجمته طائرات أميركية. ولاحظت الإستخبارات الروسية GRU في تقريرها ليوم ٦/نيسان: "نفذت قوات خاصة للتحالف هذا العمل /الكمين وقصفت الرتل الروسي مستخدمة أسلحة روسية لإخفاء هوياتهم، وليلوموا العراقيين بعد ذلك". أكد الفحص القضائي على بقايا الأعتدة في العجلات وأجساد المصابين نوعية العتاد المستخدم كما أن الرسائل التي قاطعتها الإتصالات الروسية أكدت هي الأخرى وبما لا يدع مجالاً للشك هوية المهاجمين.واضاف تقرير GRU أن الرتل زاد من سرعته رغم اصابة بعض الدبلوماسيين الروس بجراح. وبعد مسافة بضعة أميال على الطريق حاولت سيارة جيب عسكرية مجهولة الهوية سد طريق الرتل، وحين رفض الرتل التوقف أطلقت سيارة الجيب نيراناً متقطعة وعشوائية ثم اختفت في الصحراء.تجاهلت مصادر روسية عديدة مفضلة الصمت خبر وجود صدام في الرتل عند تركه بغداد، ولكنهم أقروا من جهة أخرى نقلهم وثائق عراقية شديدة الحساسية – هي "أرشيف نظام صدام" ؛وفقاً لمصادر روسية – وكذلك وكما ورد

في تقرير"GRU – أجهزة سرية أخذت من معدات عسكرية أستولى عليها عراقيون".

في اليوم التالي تحدث بوش وبوتين تلفونياً ووعد بوش بأجراء تحقيق بالحادث.وفي أواخر نفس اليوم وصلت كونداليزا رايز الى موسكو لمقابلة وزيرالخارجية أيكور أفانوف، وقدمت اعتذاراً عن الحادثة.في الوقت نفسه عاد السفير الروسي فجأة من موسكو الى بغداد يوم ٩/سبتمبر/أيلول عبر دمشق.ولعلهم خصصوا له طائرة خاصة ظلت بانتظاره في دمشق منذ يوم ٦أيلول ثم أعادته بعد ٤٨ ساعة وهو مؤشر آخر على الأهمية الفريدة للرتل الروسي.

الدخول الى بغداد

دخلت قوات اميركية خاصة كبيرة الحجم بغداد وبات تعدادها مع من سبقها من قطعات أميركية الى بغداد حوالي ٢٠ ألف جندي بالاضافة الى ٥ آلاف موجودة كتعزيزات. كان ٧ آلاف جندي من تلك القوة من قطعات فرقة مشاة آلية/٣ ، ومن التي كانت في المطار .تواصلت الاشتباكات الشرسة داخل بغداد ، ودمرت دبابة أميركية واحدة على الأقل. وسيتزايد عدد المجاهدين العرب – وهم قوة كفء وفعالة للغاية- في قتالات الشوارع.

بدأت طلائع فرقة/ ١٠١صولة جوية تدخل بغداد من الغرب، كما وصلت عناصر من فرقة/١مارين من الجنوب. أرسلت فرق مشاة آلية/٣ دورية قتال تطوف وسط بغداد حيث تواصل القتال ضد جيوب المقاومة بعد عبورها خط الدفاع الداخلي للحرس الجمهوري الممتد على طول النهر.هبطت أول طائرة نقل ضخمة C-١٣٠s للقوة الجوية الأميركية في مطار بغداد الدولي آخر ذلك اليوم، وبدأ عناصر هندسة القتال تصليح المدارج. وفي ما بعد ظهيرة ذلك اليوم دمر العراقيون جسراً على نهر دجلة جنوب بغداد لمنع عبور المارينز. أدى ذلك الى عودة القتال الشديد بين الفدائيين ومليشيات البعث والمجاهدين العرب والكوماندوز العراقيين ضد الجنود الأميركان وأكثرهم من المارينز الآتين من الجنوب.اقترب تعرض القوات الأميركية خلال هذا القتال كثيراً والى درجة خطيرة من هجوم باسلحة الدمار الشامل. ورأى المقدم الدباغ مجموعة من الفدائيين وهي توجه أحد صواريخ أر.بي.جي نحوموقع أميركي على حافات بغداد.

وقد قال المقدم الدباغ هذا لـ "كوهلن كون" بأنهم "كانوا سيطلقون هذا المقذوف ؛ولكنهم أدركوا أنهم ؛ سيقتلون الكثير من العراقيين الذين لا يمتلكون أقنعة وقاية لذا أعادوا المقذوفات الى السيارة وانطلقوا". شددت القيادة الوسطى الضغط على القوات الأميركية في جميع أنحاء العراق وعلى الأخص تلك التي تطوق الناصرية والنجف والديوانية وكربلاء بحسم المعارك بسرعة ليشاركوا في معركة بغداد.

في ٧/نيسان قامت قوات محمولة بالسمتيات – تضم عناصر من فرقة/١٠١صولة جوية وفرقة/٨٢محمولة جواً وفرقة مشاة آلية/٣- بتعزيز سيطرتها على مراكز المقاومة التي تركت (أو تم تخطيها) حين واصلت القوات الأميركية زحفها الى بغداد. وكالعادة ذابت أو اختفت القطعات العراقية مع معضم أسلحتها خلال الليل وقد عثرت القوات الأميركية على عدة مواضع دفاعية مهجورة. وفي كربلاء كانت القوات العراقية قد تلقت أمراً بإخلائها من صدام حسين مباشرة بعد اخبارهم بغداد بأن القوات الأميركية باتت تهدد المرقد المقدس للحسين بن علي (عليهما السلام) .ومع ذلك فما زالت مدن الناصرية والنجف والكوت والديوانية ومدن صغيرة أخرى في الجنوب تحت سيطرة العراقيين. كما واصلت قوات الفدائيين؛ ومليشيات البعث والكوماندوز العاملة خارج تلك المدن عملياتها وغاراتها على الأرتال الأميركية على الطرق الرئيسة.

وعودة الى بغداد أكدت فرقة مشاة آلية/٣/ والمارينز وجودهما في شوارع المدينة. وواصلت الوحدات الأميركية تسيير دوريات ثقيلة من الدبابات وناقلات الأشخاص المدرعة وتحت حماية جوية كبيرة، ورغم ذلك خاضوا اشتباكات عديدة إذ لم تجدهم حشودهم وحدها كما يبدو، وكان أقسى قتال هو ذلك الذي جرى مع المجاهدين العرب وفدائيي صدام.ولكن يبدو أن معظم المقاتلين العراقيين والمجاهدين العرب آثروا السلامة وتجنب الأذى المفرط ، فكانوا حال ظهور رتل أميركي ينتقلون وبكل بساطة الى الشوارع الضيقة حتى تتخطاهم .

فتشت القوات الأميركية عن الملاجئ والمقرات المشيدة تحت الأرض وكذلك عن أية ثكنات أو مخازن أسلحة قد تخطوها.أرسلت فرقة مشاة/٣ عدة دوريات من المطار الى ثكنات ومرافق الحرس الجمهوري الخاص في الجنوب الغربي من المدينة وحيث خطهم الدفاعي الداخلي، وفي شمال المدينة تولت عناصر من فرقة/١٠١صولة جوية غلق الطريق الرئيس الى تكريت. وفعلت قوة المارينز التي وصلت نهر ديالى ثم انعطفت ودخلت من جنوب بغداد ، ولكن بعد تأخرها عن التوقيتات المحددة بـ ٤٨ ساعة نحي العقيد جوي داودي من منصبه كآمر لواء برغم أدائه الجيد في الناصرية.

وفي الوقت نفسه أكد البعض ممن هرب الى دمشق ودول عربية أخرى لمسؤولين عرب محليين بأن صدام حسين كان قد اقتنع بأن هذه الحرب على العراق في بدايتها بعد. وأوضحوا أنه ما من شك في عجز العراق عن الصمود بوجه أسلحة التكنولوجيا العالية،

وهذا يوضح قرار وأوامر صدام لقطعاته المهمة بالمحافظة على نفسها وتهيئة نفسها لحرب المدن، لكن عليها وفي الوقت نفسه التصدي للهجوم الأميركي ضمن الحدود المعقولة ومن ثمة اعادة انتشارها في المواقع السرية المقررة مسبقاً. وأقر أولئك الفارون بأن أوامر صدام تسمح للجنود بالانضمام لغير وحداتهم إذا تعذر عليهم الوصول الى وحداتهم الأصلية لأن بعض القطعات العراقية قد تعرضت لضربات شديدة الأذى. ومع ذلك فهذه كلها غير مهمة في حساب عناصر ومهام كسب الحرب للقوات العراقية. ولم يحن الوقت حتى آنذاك بعد لاستخدام المتيسر من أسلحة الدمار الشامل، كما لم يكن مناسباً بعد لتوجيه ضربة كبرى لاسرائيل والتي كان صدام حسين مصراً على امكانية توجيهها حين يقرر.

اقتنع المسؤولون العرب بطروحات من هم موضع ثقة صدام لذا قرروا مواصلة الاعتراف بنظام صدام و رفض الحكومة التي سينصبها الاميركان في بغداد. واصلت خدمات الاستخبارات العربية توفير الدعم لصدام و شعبه داخل وخارج العراق.

خلال يوم ٧/نيسان أبلغت عدة مصادر استخبارية عن رؤية قاذفات صواريخ سكود في غربي العراق وقرب الحدود السورية. قامت عدة مجموعات من القوات الخاصة بعمليات بحث ومطاردة شديدتين ومكثفتين ولكن فاشلة في النهاية.

قصف مطعم الساعة

في ما بعد ظهيرة يوم ٧نيسان، ومرة ثانية حاولت اميركا اغتيال صدام حسين وولديه.فقد أبلغ (عميل) بأن صدام سيذهب الى

أحد المطاعم في المنصور [مطعم الساعة في شارع ١٤رمضان] أو الى ملجأ قريب منه. وقال العميل بأن صدام كان سيعقد اجتماعاً مع نحو ٣٠ من كبار المسؤولين والمقربين، فجرى وعلى الفور تحويل مسار قاصفة B-١B كانت تحوم فوق غربي العراق والتوجه فوراً لقصف الهدف الجديد فألقت حمولتها من الأعتدة خلال ١٢ دقيقة. كما أرسلت طائرات (F-١٦CJs ,JDM) لاخماد نيران أية بطريات مدفعية مضادة للطائرات قد تتدخل، بينما كانت طائرة تشويش الكتروني EA-٦ تحوم خلسة بمتابعة B-١B لتأمين تشويش أرض- جو ضد الرادارات العراقية.ألقتB-١B ؛قنبلتي GBU-٣١ زنة ٢٠٠٠ رطل تلتها قنبلتا (تدمير-منطقة) .كانت هذه الغارة عرضاً مهماً ومثيراً لانجازات القوة الجوية في التحليل الاستخباري والقيادة والسيطرة.دمرت القنابل الأربع ملجأين محصنين وجميع المباني السكنية المشادة فوقهما. ومع ذلك لم يكن لا صدام حسين ولا ولداه ولا أي من قادة النظام بين العديدين من المدنيين العراقيين الذين قتلوا أو جرحوا.

يبدو أن الاميركان قد خدعوا وغرر بهم مرة أخرى. وكان صدام قد قرر هذه المرة أن يقدم نفسه كهدف محتمل ليحكم بنفسه فيما كان أحد العارفين بتحركاته قد خانه، وقد ابلغ أحد كبار المسؤولين الأمنيين العراقيين الأردنيين بأن "صدام حسين عرف بأن أحدهم خانه وسلم المعلومات عن أماكن وجوده و تنقلاته للأميركان". وفي٦/ نيسان أرسل صدام دعوات الى عدة مجموعات من المخلصين له لملاقاته في مكان محدد في بغداد، وطلب من العديد منهم موافاته في مطعم في حي المنصورفي بغداد في اليوم التالي.وصل صدام المطعم قبيل وقت قصير من الموعد المحدد

بسيارة تكسي عادية. دخل المطعم تاركاً حمايته خلفه ، ثم اندفع مسرعاً ليخرج من الباب الخلفي للمطعم. بعدها وبوقت قصير بدأ تساقط القنابل الأميركية على المكان.

جاءت الغارة الأميركية بسرعة عالية بحيث لم يتسن لبعض عناصر حماية صدام الابتعاد عن المنطقة. وابلغ مصدر آخر وكالة 'AFP' الفرنسية للأنباء بان صدام حسين "لم يعد بحاجة الى دليل على الخيانة لذا أمر باعدام أولئك الضباط المعدودين بين الأكثر أخلاصاً له."

شائعات

تشبعت بغداد وقتها وأصبحت ميداناً للعديد من الشائعات عن التآمر والخيانة والتي شملت في النهاية النظام كله.كان القاسم المشترك لتلك الشائعات والتي كانت نقطة التحول في الحرب والتي حدثت حين تخلى كبار القادة العسكريين عن خوض معركة الدفاع عن بغداد وخيانة صدام. "لقد انقلب بعض كبار قادتنا الى خونة وغيروا مواقع قطعاتنا بعيداً لتسهيل دخول الاميركان بغداد" وفق أقوال أحد ضباط صف الحرس الجمهوري ، مضيفاً "لقد تولينا القاء القبض على بعض أولئك الضباط الخونة.لقد اعتقلنا ٧٥خائناً استخدموا جميع الوسائل بما فيها معدات الاتصال المعدنية.إذ كان بوسع أحدهم مجرد القاء كرة معدنية صغيرة في مواقعنا الخفية لتعرف القطعات الأميركية أين نحن كي تأتي وتقصفنا....وعرفنا فيما بعد أن مسؤولاً كبيراً خان الوطن. وبقدر ما عرفته بنفسي فقد خاننا حتى وزيرالدفاع فأعدم فيما

بعد من قبل وزير الداخلية.[من الواضح وجود مبالغات ومعلومات خاطئة في هذه الشهادة]

ووفقاً لشائعات قوية أخرى استأذن طيارون عراقيون السماح لهم باستخدام ضربات انتحارية ضد قوات التحالف المتقدمة ولكنهم حرموا من ذلك بفعل ضباط كبار خونة. وأفاد أحد المصادر أن أحد الطيارين أعدم علانية لإصراره على الطيران والقتال.

حتى ٨/نيسان كانت سيطرة الأميركان على بغداد مشكوكا فيها أو غير مستقرة على أحسن الفروض.وفي الحقيقة لم تتمكن U.S حتى آنذاك أكثر من تسيير دوريات دروع ثقيلة عبر قطاعات غير محمية من بغداد. فقد عادت المقاومة العراقية الى الحياة بعد أن عاد الفدائيون ومليشيات البعث والقوات الخاصة والمجاهدون الى الشوارع عبر بغداد الكبرى.وسيطرت قطعات موالية لصدام على قطاعات أخرى من المدينة وعلى الأخص الضواحي الآهلة بعوائل النخب البغدادية.أسقطت طائرة أميركيةA-١٠ :(صائدة دبابات) بصاروخ محمول على الكتف خلال أحد الاشتباكات.

بدأت مليشيات شيعية تابعة لايران تجوب الأحياء الشيعية في بغداد ؛كانوا جميعاً جيدي التسليح والتنظيم و التمويل أيضاً. وسرعان ما سيطرت تلك المليشيات على الأحياء المجاورة وسط ترحيب ودعم محلي كبيرين. واللافت للنظر بعد أن تلك المليشيات وفرت الأرزاق والخدمات الطبية الطارئة للسكان.كان الخط السياسي الشيعي معادياً لصدام بنفس قوة معاداته للأميركان.وفي أجراء جريء ومعاد لصدام سارعت قوى شيعية الى تبديل تسمية قطاع سكاني ضخم من "مدينة صدام" الى "مدينة

الصدر"نسبة الى الأمام [محمد] باقر الصدر الذي كان صدام قد أعدمه أوائل تسعينيات القرن الماضي.

وفي الوقت نفسه تواصل قتال شديد على وحول جسرين رئيسين في بغداد هما – جسر الجمهورية وجسر السنك. كان على قوات المارينز التراجع واعادة تنظيم نفسها مع طلب إسناد كثيف من نيران الطائرات والسمتيات قبل إحكام سيطرتها النهائية.أبدى المجاهدون العرب تصميماً شديداً ولافتاً للنظر طوال المعركة ؛وواصلوا القتال حتى بعد انسحاب الوحدات العراقية النظامية.شن المارينز كذلك هجوماً على مطار الراشدية شمال شرق بغداد. وفيما بعد الظهيرة واصل الطيران الأميركي قصف مباني الحكومة الرئيسة.

كانت القوات العراقية في شمال غربي البلاد قد عززت وجودها في منطقة سد حديثة ومنطقة القائم الكبرى، و منعت قوات المغاوير وبفعالية عالية القوات الخاصة للتحالف من الاقتراب من تلك المناطق الدفاعية. كان بوسع العراقيين كذلك اطلاق صواريخ بالستيكية على اسرائيل من قواعد الاطلاق هناك، لكنها لم تفعل.

في ٨/نيسان سلم الجنرال سفيان التكريتي [!!؟] وزملاؤه ماوعدوا به وذلك ؛بأمر قطعاتهم بوضع أسلحتها. أصدر جنرال سفيان أوامره بذلك لأعتقاده بان صدام قد قتل بالقصف الأميركي في اليوم السابق، لذلك فلا جدوى بعد من مواصلة أية مقاومة أو دفاع. أصدر الجنرال سفيان أمراً شفوياً أكده طاهر جليل حبوش وجنرال حسين رشيد وهما أقرب حلفاء سفيان. وفقا لقناعة اللواء مهدي عبدالله الدليمي أحد قادة بغداد العسكريين (!) أن حسين

عبد الرشيد مرر معلومات للأميركان وأكد لهم بأن "الحرس الامبراطوري لصدام والمؤلف من ١٠٠ألف مقاتل سوف لن يتدخل".

وفي أواخر ذلك اليوم شوهد الجنرال سفيان وما يقرب من العشرين من أفراد عائلته في مطار بغداد الدولي وهم يمتطون طائرة أميركية هيركليس C-١٣٠ أخذتهم الى مكان غير معروف.ولحماية الجنرال سفيان أعلن مسؤولون أميركان نبأ وفاته قبيل خمسة أيام من تركه البلاد.

بدءا من ساعات ما قبل فجر ٩/ نيسان اندفعت دوريات ووحدات ثقيلة أميركية عميقاً في بغداد؛ والغاية التي توختها هذه العملية هي توسيع ومد سيطرة الأميركان على المراكز المهمة في العاصمة.تقدمت تلك القطعات ببطء خوفاً من حرب المدن ومفاجآتها ومطباتها.أرسلت فق مش آلية/٣؛دوريتين-واحدة الى الحي الذي قصف مؤخراً والثانية الى خط دفاع الحرس الجمهوري على طول شاطئ دجلة وصولاً الى خط المباني والقصور الرئاسية.كما جاءت من الشمال دوريات فرقة/١٠١ صولة جوية واندفعت نحو قاعدة ومطار المثنى العسكري ومحطة السكك الحديدية لبغداد. شن المارينز هجومين رئيسين: الأول من قاعدة الرشيد الجوية جنوبي بغداد وتقدم نحو مقر الدفاع الجوي ومحطة الكهرباء الرئيسة؛ وعلى طول نهر دجلة. والهجوم الثاني على شكل مجموعة دوريات بدأت من اتجاه الشمال الشرقي في محاولة لاختراق حافات مدينة صدام (الصدر الأن) .واصلت الوحدات خلال ذلك جهودها لتحديد المنافذ الموصلة الى منظومة

الممرات والأنفاق تحت الأرض ؛والملاجئ والأماكن السرية التي تستخدم من قبل أعوان صدام والمقربين اليه لكن دون جدوى.

في ما بعد الظهيرة وبينما بدا وكأن الدوريات قد حققت غاياتها عمت الفوضى وبدأت أعمال نهب وشغب في كل بغداد التي باتت عصية على الخضوع للنظام ولايمكن السيطرة عليها الآن. دبر أو أستثير هذا الكم الكبير من الفوضى ونظم من قبل ناشطين وقادة بعثيين ولكنه لم يؤثر البتة على القوات الأميركية التي تحيرت وبدت عاجزة تماماً عن اتخاذ أية أجراءات واكتفت بمراقبة ما يجري وبغداد تتمزق من حولهم. وشهد مساء ذلك اليوم (٩نيسان) اسقاط تمثال صدام حسين المقام في ساحة الشهيد (الفردوس) أمام دهشة [بل وبمشاركة] كم كبير من القوات الأميركية.كانت حركة رمزية كبيرة وذات دلالات بعيدة وعميقة.

الظهور الأخير لصدام

عودة الى ما بعد ظهيرة ٨ نيسان فقد ظهر صدام وقصي وعبد حمود الى العلن من أحد المخابئ السرية.ثم التقوا مع مجموعة من حراسهم الشخصيين بمافيهم خميس للتمشي في شارع الأعظمية. واندفعوا مسرعين من هناك الى بيت آمن في ضاحية الجمارةal-Jamra)) المجاورة لمدينة صدام (الصدر حالياً) [وردت هكذا] وظلوا هناك لما يقرب من ساعتين.وشعر صدام بالثقة حد التمشي خارج البيت عائداً الى الاعظمية ليتحدث الى الناس، ثم أمر حراسه إنزاله وقصي وعبد حمود قرب بيت لم يسبق للحراس

الشخصيين تحديده كبيت آمن، وسيبقى صدام في هذا البيت لعشر ساعات قادمة.

في صباح ٩ نيسان الساعة ٤ فجراً ترك صدام وقصي وعبد حمود وعدد من حراسهم الشخصيين الدار وذهبوا الى ساحة عنتر.لقد تنقلوا بست عجلات غير مرقمة.لكنهم اكتشفوا وهم بعد في الجوار أن عدة دوريات عسكرية أميركية – الأرجح أنهم من المارينز–تجوب المنطقة فاستداروا مسرعين وعادوا ليقود صدام المجموعة الى جامع أبي حنيفة لاعتقاده بأن القوات الأميركية سوف لن تدخل وتفتش الجامع.وبعد أن بقوا في الجامع لحوالي ساعة تحركوا ثانية.

قاربت الساعة السادسة صباحا، وكان صدام وقصي وعبد حمود في السيارة الأولى التي تقود الرتل الصغير ، تليها وقريباً منها جداً سيارة تحمل القليل من الحراس الشخصيين.قاد العجلات الأربع الأخرى الجنرال رشيد رئيس الحراس الشخصيين، وكانت تسير على مسافة قصيرة من سيارة صدام.كان خميس في أحدى تلك السيارات، ثم اندفع الرتل نحو الكاظمية. ثم فوجئوا جميعاً بمرأى رتل أميركي متجه نحوهم رأساً فاتجهت سيارة صدام والعجلات الأخرى وباستدارة شديدة داخل أحد الشوارع الجانبية الى اليمين وتحت أنظار الأميركان. وكما قال خميس عن ذلك ليوشيرو أكاي فقد نجا صدام باعجوبة.توقفت السيارات الأربع الأخرى وتركت الرتل الأميركي يمر.وبعدها اكد الجنرال رشيد للمجموعة أن الرئيس خرج سالماً وبوسعهم الذهاب الى بيوتهم. كما عاد خميس

نفسه الى بيته في بغداد ومنها غادر بسيارته الى تكريت حيث قضى تلك الليلة.

في نهاية يوم ٩/نيسان ذاك تمشى صدام ثانية في شوارع بغداد؛ مختلطاً ومتحدثاً مع مؤيديه والمعجبين به واعداً إياهم بالنصر.كما سجل آخر خطبه التلفزيونية لكنه كان متأخراً جداً ليحظى بإذاعته في تلفزيون بغداد.الا أن نسخة غير مرتبة عرضت ليلة ١٩/١٨نيسان من قناة الجزيرة.كان خطاباً ذا طابع ديني جداً؛ تخللته الكثير من المفاهيم الشيعية ، وتحدث فيه عن الغدر والخيانة –ضده وضد العراق.

في الصباح التالي (١٠نيسان) ؛دخل صدام مسجداً في الأعظمية مع قصي وعبد حمود.وسرعان ماتجمع الكثير من السكان لتحيته؛ ولكن صدام والمجموعة الصغيرة المرافقة له لم يتوقفوا للتحدث الى الجموع.وكان ذلك أخر ظهور علني لصدام حسين.وحوالي منتصف النهار عاد خميس الى بغداد واتصل بحارس شخصي اخر ممن يعرفون بأماكن تواجد صدام.إذ كان صدام وقصي وعبد حمود مختبئين عندها في دار صغيرة في منطقة الداودي (في الكرخ) ؛حيث ظلوا هناك لعدة أيام دون أن يغادر أحدهم الدار.

في صباح ١٣ نيسان قرر الرجال الثلاثة ترك الدار بمحض اختيارهم.وفي اللحظة الأخيرة استدعى صدام حراسه الشخصيين وودعهم. ويتذكر خميس أن صدام قال لهم "انتهى عهدي. وأعرف الى أين علي الذهاب الآن".منح صدام خمسة ملايين دينار لكل حارس شخصي.ثم استقل قصي وعبد حمود سيارة مرسيدس

وذهبا.وقال خميس ليوشيرو أكاي ؛أن ذلك كان أخر عهده بصدام وآخر مرة رآه فيها.

ومع ذلك وبقدر اهتمام واشنطن ؛فقد انهار النظام رسمياً في ١٠ نيسان.وقال محمد الدوري مندوب العراق في الأمم المتحدة في نيويورك "انتهت اللعبة". ومع ذلك مازالت الفوضى عامة في بغداد وظل النهب يحول دون فرض الأميركان لسيطرتهم.

القتال الأخير

ومازال المخلصون لصدام – بعد تشكيلهم لميليشا بالتعاون مع المجاهدين العرب الذين اندسوا في صفوفهم- يسيطرون على غربي بغداد. وفي جامع أبي حنيفة خاضت القوات الاميركية قتالاً ضارياً مع مفارز محلية من الحرس الجمهوري الخاص.وفي ساحة عدن (مدخل الكاظمية) القريبة اصطدمت قطعات أميركية مع قوة عراقية مدرعة الا أن طائرات أباتشي وتعزيزات ثقيلة أخرى دمرت دبابتين وثلاث ناقلات أشخاص مدرعة قبل اختفاء باقي القوة العراقية في الشوارع القريبة الآمنة.أما في حي المنصور فقد قصفت الطائرات الأميركية تجمعات "المجاهدين".

مع ذلك فقد واصلت القوات الموالية لصدام اقامة حواجز الطرق.ومع المساء كانت القوات الأميركية قد انسحبت من المناطق التي تواصل فيها القتال واستأنفت الطائرات القصف الذي أوقع العديد من الخسائر بين المدنيين العزل.خاضت الوحدات الأميركية عدداً قليلاً من الاشتباكات للسيطرة على بعض المباني المهمة وسط بغداد.وفجر انتحاري واحد على الأقل نفسه قرب

مجموعة مارينز خارج فندق فلسطين وسط بغداد فقتل ضابطا وجرح ثلاثة رجال.وفي مدينة الصدر فجر انتحاري آخر نفسه فقتل سبعة جنود مارينز كانوا بمهام دورية.وفي منطقة الدورة جنوبي بغداد قتل ٢١عراقياً على الأقل وسط القصف و النيران المتبادلة خلال الاشتباكات بين الفدائيين والقطعات الأميركية.

كانت هناك العديد من الأسئلة التي ظلت الادارة الأميركية تتجنبها: لماذا توقفت قطعات عراقية عديدة عن القتال فجأة ثم أختفت ؟ أين هم منتسبو وأسلحة ومعدات نحو (٢٥) فرقة عراقية ؟لم لم تستسلم تلك الفرق؟ وأين ياترى ذهب القادة العراقيون وكبار الضباط ؟.

الجزء الثالث: الحرب الحقيقية تبدأ

مقدمة المترجم:

بعد ان انتهى الفصل التاسع باحتلال بغداد يرجع المؤلف في الفصل العاشر الى المشكلات التي ظهرت اثناء التحضير للحرب وخلال الحرب مع القوى المختلفة التي جاءت الى السلطة بمعاونة الاميركان ولاسيما مع الاكراد. إن المؤلف ينحاز بوضوح الى فكرة ان الاميركان غير ملمين بالتاريخ السياسي والاجتماعي للعراق ، وهو يورد في سياق الحرب عددا من الامثلة. إننا ننبه الى أن المؤلف قد يغطي على الاخطاء الجوهرية التي اقترفها الاميركان واسقاطها على كمية هائلة من الملابسات والوقائع السياسية الخاصة بالمنطقة ، وبالرغم من ذلك فهو يقدم وصفا جيدا للمشكلات السياسية والعسكرية .

المترجم

عشية الحرب على العراق قال وينستون تشرشل الحفيد: "لم يكن العراق أبداً وطناً/دولة بالمعنى الحقيقي،وليس بوسع الاحتلال الأميركي لبغداد، ولا للاعلان السياسي للادارة الأميركية تغيير هذه الحقيقة. ظل العراق ومنذ أوائل ظهوره عبارة عن خليط أو لصيق من أقوام وعناصر وقوميات جمعت مع بعضها البعض في أوائل عشرينيات القرن الماضي لتعزيز وتطوير مصالح بريطانيا الاستعمارية". وأكد الحفيد قائلاً: "كان جدي هو من ابتدع العراق وأرسى قواعد معظم أجزاء ما يعرف اليوم بالشرق الأوسط.. والآن فإن الهجوم على العراق والاطاحة بنظام البعث وصدام حسين في العراق قد ألغى في الواقع أو دمر الآلية الوحيدة التي ضمنت تماسك تلك المكونات المتصارعة وبقاءها معاً."

بعد الاحتلال لم تعد تلك المكونات المختلفة وقادتها المحليون والتقليديون يخشون نظام صدام حسين القمعي فأعادت تأكيد هوياتها الأثنية بل وباشرت بالانتقام. ونتيجة لكل ذلك فقد بدت جهود القوات الأميركية والبريطانية التي غزت العراق لاسقاط النظام واقامة وحماية نظام ديمقراطي تعددي في عراق موحد، عدائية وضارة كنظام صدام نفسه. لكن وفي الوقت نفسه ولادراك تلك المجموعات الطائفية والأثنية بقوة وسلطان القوات الأميركية والبريطانية لجأت الى الخداع والتعاون الزائف، والغدر، والطعن من وراء الظهر، والارهاب، والخيانة في أروع ماعرف من أشكالها وفق تقاليد عرب الشرق الأوسط. ظلت واشنطن طوال ذلك غافلة تماماً عن تلك المفاهيم السائدة.

عملية ٢٦ آذار

برغم تسلم الكرد للمساعدات الاقتصادية والدعم السياسي الأميركي والغربي لأكثر من عقد من السنين واصلوا تقديم مصالحهم الخاصة على مصالح حماتهم. ومع ذلك فشلت الولايات المتحدة في تفهم ذلك ، بل واصلت وضع وتنفيذ عمليات خاصة وسرية لمساعدة الكرد.وسيكون لمثل هذا الانفصام واللاترابط نتائج كارثية كالتي تعلمتها القوات الخاصة البريطانية SAS بنفسها .

ففي ٢٦آذار/مارس أنزلت طائرة) C-١٣٠ هيركيلوس) من القوة الجوية الأميركية وبالمظلات قوة من ١٦جنديا قوات خاصة بريطانية SAS مع ٤ عجلات لاند روفر ثقيلة التسليح شمالي العراق.أديرت العملية بكاملها ونفذت بتوصية من قبل الولايات المتحدة واعتماداً على استخباراتها.كان هدف المجموعة سبر غور دفاعات الحرس الجمهوري في صحراء شمال غرب الموصل.ووفقاً لمعلومات الارتباط الأميركي فقد كانت القوة ستلقى بالمظلات في منطقة صحراوية تقع على مسافة (١٠٠) ميل جنوب غرب الموصل وهي منطقة تحت سيطرة كرد من أصدقاء CIA ويتلقون دعمها المالي. وخلال الاستعداد للعملية أكدت قيادة القوات الخاصة U.Sبأن المعلومات الواردة من صور الستلايت وطائرات دون طيار وكذلك من مصادر بشرية على الأرض تشير الى خلو منطقة الانزال من أية قوات عراقية.

تقع منطقة الانزال المظلي على الحدود بين قبائل كردية وأخرى سنية، وفي الوقت الذي وصلت فيه المجموعة المنطقة كانت هناك قوة عراقية كبيرة بانتظارهم. نظمت قوة الـSAS نفسها دون تدخل وبدأت السير نحو الموصل ولكنها سقطت بكمين أعدته قوة عراقية كانت بانتظارها.فقد أنذر الكرد العراقيين وأفشوا سر العملية في مقابل مساعدة العراقيين لهم بالدفاع ضد القطعات التركية المتقدمة داخل العراق وباتجاه قضاء سنجار -وهي مشكلة تتصاعد باستمرار، والكرد مقتنعون تماماً بأنها تحظى بموافقة ودعم حليفتي تركيا في الناتو، أي الولايات والمملكة المتحدتين.

نجحت ثلاث عربات لاند روفر بالتملص من مطارديهم العراقيين ثم انسحبت الى منطقة أمينة ؛ ليتم اخلاؤها بواسطة سمتيات القوة الجوية الملكية "جنووك ." Chinook; أما العجلة الرابعة التي انفصلت عن مجموعة SAS فقد طوقت من قبل أكثر من (٥٠) جندياً عراقياً. وبعد قتال كثيف أضطر رجالها الى تركها.ثم عرضت عجلة اللاندوفر هذه فيما بعد من على شاشة الجزيرة وجنود عراقيون يرقصون حولها مطلقين نيران بنادق الكلاشينكوف في الهواء.

بات الكوماندوز الأربعة معزولين عن عجلتهم من جهة وعن باقي عناصر SAS من جهة أخرى، وفي محاولتهم التملص من القوات العراقية انفصلوا عن بعضهم البعض.ظل اثنان منهم يجريان في الصحراء وهما مسلحان ببندقيتي أم-١٦وبمسدسين وسكاكين طوال اثنتين وسبعين ساعة مراوغين النيران العراقية في مطاردة ساخنة. فقطعوا ٦٠ ميلاً خلال ٧٢ساعة مكتفين من الطعام على

ما تبقى لديهم من أرزاق الطوارئ والقليل من الماء.وبعد أن نجحوا بتضليل مطارديهم العراقيين فتحوا جهاز لاسلكي الطوارئ لطلب اخلائهم حيث تم في النهاية التقاطهم من قبل سمتية القوة الجوية الملكية جنووك';Chinook .

لم يسعف الحظ الجنديين الآخرين إذ وجدا نفسيهما معزولين عن أية نقاط دلالة محتملة لتحديد مكانيهما فقررا السير نحو الحدود السورية- متذكرين بأن السوريين سبق أن ساعدوا عناصر من SAS عام ١٩٩١.لكن كان استقبالهما مختلفاً هذه المرة فقد اعتقلتهما الاستخبارات السورية وأخضعتهما لتحقيق وحشي في محاولة للحصول على أية معلومات قد يستفيد منها العراقيون. وتطلب الأمر زيارة مفاجئة لـ (مايك أوبراين) الوزير في الخارجية البريطانية لدمشق في نيسان والتقائه بشار الأسد ، مع نقد وتحذير شديد وجهه كولن باول الى دمشق من أجل اطلاق سراح الجنديين البريطانيين من السجون السورية. وعن هذه العملية بمجملها قال مصدر آخر من داخل" SAS: هذا ماستحصل عليه من ورطة[لواص واكلان...] حين تعتمد في أعمالك على الاستخبارات الأميركية ."

كانت هذه القضية تجربة قاسية ولكنها في الحقيقة تعكس المشاكل المستعصية والمتأصلة في الاستخبارات الأميركية وفي صانعي القرار الأميركيين. كان ضباط الاستخبارت الاميركان كقاعدة يثقون بمصادرهم.وأكثر من ذلك لايمتلكون تفهما قوياً أو واضحاً للحقائق والتفاعلات المحلية. ويعجزون الى حد كبير عن

اصدار أحكام دقيقة ومنطقية في تقويم الحقائق النسبية لما يتلقونه من معلومات.

التصدي لتركيا

في هذه الحالة، وآخذين بالحسبان العداء المرير بين الكرد والتركمان، ثم التدفق المتكرر لعناصر من القوات الخاصة والاستخبارت العسكرية التركيتين في قضاء سنجار، فمن المنطقي جداً أن يهتم الكرد بقوة وأكثر من أي شيء آخر بالتصدي للمناورات التركية. ولذلك يحتاج الكرد الى من يحمي ظهورهم، ولتحقيق ذلك عليهم التوصل لصفقة مع القبائل السنية- ومع الحرس الجمهوري. بطبيعة الحال أعلن الكرد التزامهم بدعم الاجراءات الأميركية طمعاً بالحصول على المال والأسلحة ولشن بعض الغارات أحياناً لقصف أعدائهم بطائرات اميركية! دوائر الاستخبارات الأميركية التي لم تستطع تفهم أولويات الكرد الحقيقية اعتادت على تقبل معلوماتهم ووعودهم بالمساعدة دونما تحفظ. لم يسأل أحد: لماذا نتوقع موافقة الكرد على التعاون مع اميركا أوبريطانيا حين يضعف هذا التعاون قدرتهم على مقاتلة الترك.

لم تبدأ هذه المشكلة المتأصلة في أواخر آذار/مارس.إذ مع تسارع الانزلاق نحو الحرب بات من الواضح التزام اميركا بإقامة حكومة مركزية قوية في بغداد، كذلك اهتمامها بعقد صفقة مع أنقرة، الأمر الذي أكد للكرد بأنه جرى تجاهلهم وغدربهم.كانت القيادات الكردية مهتمة وعلى الدوام أما بتحقيق الاستقلال التام والذي

سيعني تمزيق العراق، أو القبول بحكم ذاتي دائم والذي يستلزم تحقيقه وجود حكومة ضعيفة في بغداد. لكن ولسوء الحظ لا تتناسب وصفتي المطالب الكردية والدولة [الموحدة] التي تنوي اميركا بناءها والدفاع عنها في العراق. وكانت النتيجة هي شعور الكرد بأنهم طعنوا من الخلف على يد حليفهم القوي والمتفهم. وكما كان عليه الأمر في تاريخ الكرد دائماً بدؤوا وعلى الفور العمل على تأكيد حقهم بالبقاء ولوعلى حساب ومصالح حلفائهم ومسانديهم. وبنظر جميع الكرد تعد مقاتلة تركيا والحفاظ على الحد الأدنى من الحكم الذاتي الأمرين الأكثر أهمية لهم من تدمير النظام القائم في الجنوب [بغداد].

هناك جوانب واقعية في الخطط الاميركية لعراق ما بعد الحرب أغضبت هي الأخرى الكرد. فخلال تسعينيات القرن الماضي استغل الكرد قرارات الحصار، بتهريب النفط العراقي الى تركيا وبالمقابل بتهريب البضائع والمعدات الممنوع دخولها العراق.وعلى افتراض قدرات عراق ما بعد الحرب على تصدير نفطه واستيراد كلما يحتاجه بحرية وشرعية – وعلى الأكثر عن طريق الأردن والخليج العربي – فسيفقد الكرد المصدر الوحيد لتوفير وزيادة مواردهم. لم تعرض لا الولايات المتحدة ولا أية "مجموعة معارضة" عليهم مصدراً بديلاً لتمويل مواردهم.وهكذا ورغم كل البلاغات النثرية فإن انتصار اميركا في الحرب يعني وعلى أقل تقدير خسارة الكرد للحكم الذاتي ولاقتصادهم المتنامي باضطراد و[الخضوع] لحكومة قوية في بغداد.و بالاضافة الى ذلك فقد عقدت صفقة بين اميركا وتركيا تضمن تأييد أنقرة لحكومة سيقيمها الأميركان وبما يلقي ظلالاً سود على كردستان.

التزامات كردية مع مخاوف

في عشية الحرب أكد مسؤولون [أميركان] للقيادة الكردية بأنهم أكملوا خططهم لفتح جبهة شمالية ضد العراق رغم عدم حصولهم على منطقة تحشد قوية في تركيا. ظل الكرد متشككين نوعاً ما لأن الخطط الأصلية تضمنت دخول(٦٠) ألف جندي أميركي للعمل في شمالي العراق بالاضافة الى قوتين أخريتين في تركيا والأردن.وأكثر من ذلك فقد حث الاميركان الكرد على تحشيد المزيد من قواتهم لمقاتلة صدام وأغدقت أموالاً كثيرة على طول وعرض كردستان لتسهيل تنفيذ تلك الخطط. أعلن الكرد استعدادهم لحشد (٧٠) ألف مقاتل ولو في عدة "جيوش" تخضع لعدة أحزاب سياسية متخاصمة فيما بينها.لم يأبه الكرد لقوات صدام لأن الحرب ستكون قصيرة نسبياً، ولأن الجيش العراقي ومعظم الحرس الجمهوري سوف لن يقاتلا كما تنبأ الزعيم الكردي[ورئيس وزراء اقليم كردستان الحالي] برهم صالح.

والأمر الذي يدركه الكرد أكثر هي الاتفاقية بين الاميركان وتركيا حول قواعد الاشتباك في شمالي العراق بما فيه "منطقة عمليات القوات التركية" ‘من قبل القوات التركية. ووفقاً لهذه الاتفاقية تعهدت تركيا بابقاء قواتها الموجودة شمال العراق على مسافة (٢٠) كيلومتراً من حدودها مع العراق. كانت هناك قوة تركية من اكثر(٢٠) ألف جندي تعمل على طول "منطقة أمينة" بعرض (٤٠) كم داخل العراق، وما من دلائل تشير الى أنها ستنسحب.كذلك أعلمت أنقرة الولايات المتحدة أن لدى تركيا خططاً لأرسال ما قد يصل لـ (٨٠) ألفاً الى شمال العراق وأن أكثر من (٥٠) ألف جندي

تركي منفتحين على طول الحدود التركية –العراقية وجاهزين لتعزيز الـ(٢٠) ألف جندي[آنفي الذكر] الذين يتولون مهام حماية المنطقة الأمينة. اللافت للنظر والمثير هو أن الاتفاقية (الأميركية-التركية) فشلت في تحديد طبيعة وهوية شمال عراق ما بعد الحرب مع أن أنقرة واصلت اعتبار ظهور كيان كردي أمرا غير مقبول وقد يواجه بامكانية التعبئة والاستعداد للحرب.

حذر قادة أكراد وفي الوقت نفسه اميركا بأن وجود قوات تركية في شمالي العراق جعل من المتعذر على الكرد دعم المجهود الحربي الأميركي.وأبلغوا مسؤولين أميركان بأن "القوات الكردية قد نشرت على طول الحدود التركية للتصدي لأية قوات تركية غازية" لأن تركيا لا عراق صدام هي الخطر الأكبر الذي يواجههم.وحذر القادة الكرد كذلك من أن "التدخل التركي في شمالي العراق سيقود الى تدخلين ايراني وسوري أيضاً."

في البداية بدا كل شيء رائعاً وكما خطط له. ففي ٢١ آذار تولت مفارز كردية بقيادة قوات خاصة أميركية احتلال حقول النفط الرئيسة في كركوك دون الحاق أية أضرار بالبنى التحتية فيها. وكان ذلك انجازاً رائعاً تماماً آخذين بالحسبان انتشار مغاوير مجاهدي خلق .

وعلى الرغم من وجود أمر بتدمير حقول النفط فور اندلاع القتال لم يبد مغاوير مجاهدي خلق والقطعات العسكرية العراقية القريبة أية مقاومة عند وصول المجموعات الأميركية والكردية حقول النفط. فمن المؤكد أن المدافعين العراقيين قد أدركوا أن النظام قد انهار وألا جدوى بعد من المقاومة واختاروا السلامة

والنجاة بأرواحهم، كما قررت قيادة مغاوير مجاهدي خلق تجاهل الأوامر في محاولة منهم للتوصل الى صفقة مع الاميركان بهدف تمكينهم من مواصلة القتال ضد نظام طهران.

المخاوف المشتركة

ومع ذلك لم يستمر التعاون الكردي طويلاً. ومتذكرين الحاجة لحماية خطوط مواصلاتهم ومتشجعين بوجود مجموعات من القوات الخاصة الأميركية معهم بدأ الكرد بنشر قواتهم في "المنطقة الأمينة" التركية واقامة حواجز طريق وإنشاء مواضع قتال. استغلت أنقرة هذه التطورات التي انتظرتها طويلاً لزيادة فعالياتها و ووجودها داخل العراق. دخلت وبعد منتصف الليل تماماً عدة قطعات تركية جديدة الى شمالي العراق من منطقة (حيكاري) وانضمت في صباح (٢٢-آذار/ مارس) للقوات التركية التي سبقتها والتي يزيد تعدادها عن(٢٠) ألف جندي والمنفتحة في [المنطقة الآمنة التركية] داخل العراق وعلى طول الشريط الحدودي.

تصر أنقرة وبوضوح على الحفاظ على سيطرتها الكاملة على شمالي العراق بصرف النظر عن الصفقة التي عقدتها اميركا مع الكرد. ووفقاً لمصادر في أنقرة "ففي الأيام التالية سيصل تعداد القوات التركية في شمالي العراق مابين(٥٠ الى ٦٥) ألف جندي". وهدف ذلك هو لمجابهة الخطر الكردي ولتعزيز السيطرة التركية على مناطق يدعي التركمان في العراق انها مناطقهم. وبعد ساعات من الأوامر التركية بإرسال المزيد من القطعات عبر الحدود حرك

الجيش الثاني التركي (٢٥-٣٠) ألف جندي داخل العراق مع تهيئة (١٣٠) ألف جندي آخرعلى استعداد للألتحاق بهم.

استغلت القيادة الكردية التدخل التركي فلم تشن أية عملية عسكرية كبيرة ضد القوات العراقية. وفشلت محاولات القوات الخاصة الأميركية المتكررة باقناع الكرد على مهاجمة كركوك. ووفقاً لما أورده تقرير الاستخبارات الروسية GRU ليوم ٢٥ آذار فإن "الأميركان أعتمدوا كثيراًعلى دعم الكرد ولكن الأخيرين رفضوا لعب أي دور مباشر لهم في الهجوم وطلبوا ضمانة من القيادة الاميركية بمنع الغزو التركي. وتجنب الترك بدورهم أعطاء أية وعود".

اقترح عميد المارينز عثمان قائد القوات الأميركية في شمالي العراق تسريع نشر الوحدات الأميركية بعد يأسه من تحريك الكرد. وفي اليوم التالي أنزل الاميركان ألف جندي من لواء ١٧٣ المحمول جواً [من فرقة ١٠١صولة جوية] وعن طريق تركيا في مطار حرير وقاعدتها الجوية الصغيرة شمال أربيل والمستخدم من قبل الكرد وقوات خاصة أميركية. انتشر جنود (ل١٧٣) لتعزيز القوات الخاصة وكذلك لتقليل وضبط الاحتكاكات بين القبائل الكردية والتركمانية والعربية.وبغض النظر عن اعلان الأميركان فتح جبهة شمالية لم يكن لنشر هذه القوة سوى تأثير قليل على القتال ضد القوات الحكومية.

إشاعات ونشاط استخباري

وفي أواخر آذار وحالما اتضح عدم قدرة U.S على نشر قوات متفوقة في المنطقة أصبح شمالي العراق ساحة عمل مفتوحة أمام دوائر الاستخبارات من العراق: سوريا وأيران، ولعبت تركيا دوراً نشطاً في ارباك الكرد وبناء وتعزيز نفوذها. وإدراكاً من القادة الكرد لطبيعة التحولات ولما يجري آثروا عدم المشاركة في الحرب وعدم الوثوق بـ اميركا. امتلأت الساحة بالكثير من الشائعات عن تآمر تركي- أميركي ضد الكرد وجاء في تقريرللمخابرات الروسية في ٢٧آذار: "يوم أمس قدمت بعض المصادر معلومات عن اتفاقية سرية تمت بين اميركا والحكومة التركية نصت على أن اميركا ومن وراء ظهور الكرد قد أكدت لتركيا بعدم المساعدة في تشكيل الكرد أي نوع من الدولة أو الحكومة في هذه المنطقة.كما وعدت كذلك بعدم منع تركيا من ارسال قطعاتها (الى المنطقة) ، وبعد احتلال (قوات التحالف) لشمالي العراق مباشرة. وأبلغ مبعوثون ايرانيون الكرد بأن واشنطن وأنقرة تآمرتا على نشر القوات الكردية في وسط العراق لتتمكن القوات التركية من دخول كردستان العراق وتدمير جميع القوات الكردية. وبلغ تعداد القوات التركية داخل العراق آنذاك (٤٠) ألف جندي، كما وضعت جميع القوات التركية وعلى طرفي الحدود بدرجة أنذار قصوى، وأمرت بالتهيؤ لخوض عمليات قتالية بإنذار(٤) ساعات فقط.

معركة ضد أنصار الإسلام

ازاء ذلك آخذة بنظر الاعتبار هذه الاسرار المؤلمة في كردستان العراق، حوّلت الولايات المتحدة انتباهها لمواجهة الإرهاب الإسلامي لمنظمة (أنصار الإسلام) الموجودة قرب الحدود الايرانية [في محافظة السليمانية]. وفي ٢/نيسان وبعد حملة استغرقت ٣٦ساعة دمرت قوة مؤلفة من حوالي الـ١٠٠من القوات الاميركية الخاصة وعدة مئات من بيش ميركة الاتحاد الوطني الكردستاني PUKالمقرات الرئيسة لمجموعة أنصار الأسلام التي تولى نحو(٥٠٠) ارهابي منهم - معظمهم من المسلمين الكرد ومعهم بضعة عشرات من متطوعي العرب الأفغان - يدافعون عنها. شنت اميركا ضربات جوية كثيفة بصواريخ كروز وهجمات بالمشاة نفذتها عناصر من (ل١٧٣) صولة جوية قبيل اندحار أنصار الاسلام. بلغ مجموع قتلى الارهابيين نحو ٣٠٠ وفرَ الباقون عبر الحدود الايرانية. وعبر ضابط أميركي عن ذلك قائلاً: "في يوم ونصف تم القضاء على منظمة ارهابية أرهبت المنطقة". وأملاً باستثمار هذا الزخم التعرضي أستهدفت قاصفات B-٥٢s أهدافاً عسكرية عراقية قرب كركوك وعلى الأخص لواء من فرقة نبوخذنصر. ومع ذلك رفضت قوات PUK المشاركة في المعركة الرئيسة.

في الوقت نفسه فجرت مفرزة من القوات الاميركية الخاصة خط أنابيب نفط عراقي ينقل ٢٠٠ ألف برميل يومياً الى سوريا عند أحدى محطات القطار الموصل بين البلدين. كانت هذه القوة الخاصة قد جاءت من الأردن وليس من القطعات العاملة مع الكرد. وبعد ورطة الـ SAS التي وصفت في المقدمة، ومتذكرين

موقف الكرد الاجمالي الرافض للتعاون لم يكن أمام الاميركان أية فرص أخرى.

في أبريل لم يعد القادة الأميركان في شمالي العراق يطيقون "حلفاءهم الكرد". فالكرد يرفضون التصدي أو الاشتباك مع مقاومات عراقية ثقيلة وبدلاً عن ذلك يطلبون من الأميركان فتح الطريق أمامهم بالإسناد الجوي والذي غالباً ما يوجهه الكرد لا كما ادعوا أو طلبوا، أي ضد القطعات العراقية، بل ضد خصومهم وأعدائهم.اشترط القادة الكرد لتعاونهم تحقيق بعض المغانم والمزيد من السلطات بعد الحرب. ووفقاً لما جاء في تقرير الاستخبارات الروسيةGRU ؛ ليوم ٤/نيسان، فقد شكى عميد المارينزعثمان وخلال مكالمة تلفونية مع مسؤولين في البنتاغون أنه "لاقناعهم (أي الكرد) بالتقدم الى الأمام علينا وبالمعنى الحرفي أن نلقي أمامهم رزمة [شدّة]من الدولارات!". ورغم الجهود الجبارة للقوات الخاصة الأميركية بتشجيع الكرد وإثارة حميتهم فلم تفتح الجبهة الشمالية في حرب العراق.

ايران وسوريا والسعودية

صعد جارا العراق الفضوليان ، سوريا وايران، من تدابيرهما واستعدادهما لزعزعة استقرار العراق وجعله عصيا على الضبط. كان البلدان قد حسما أمرهما وقررا استخدام قوات أصدقائهما لطرد الأميركان من بغداد مستخدمين نفس الاستراتيجية التي استخدماها قبل ٢٠ عاماً حين أخرجا المارينز الأميركان من بيروت. تدرك دمشق وطهران أن العالم الاسلامي في هياج واستثارة متزايدين وبات مهيأ بقوة وفاعلية لمجابهة اميركا، وهما تطمحان لاستغلال هذا الغضب والكره بأفضل وجه.

شهد ٥ آذار- مارس تطوراً مثيراً في التحدي الاسلامي لآل سعود وللحرب على العراق. فقد أفتى الشيخ سلمان بن فهد العودة بـ "تحريم مقاتلة العراقيين وتدمير بلدهم أو تدمير أية منشآت عسكرية أو مدنية عراقية وتحت أية ذريعة أو تبرير". كان) الشيخ العودة) من المقربين لأسامة بن لادن، ولربما اتخذت فتواه وسيلة كافية لتفجير عصيان ضد آل سعود في حالة اتضح للعلن موافقة الرياض الضمنية باستخدام المنشآت السعودية خلال الحرب.

ولمضاعفة تأثير فتوى الشيخ العودة أصدرت جامعة الأزهر في ١٠آذار/مارس أمراً صادراً من المجلس الأعلى للأزهر اًلى جميع المسلمين بشن الجهاد ضد اميركا وضد قوات جميع حليفاتها المشاركة في الحرب.

التعاون السوري الإيراني

صيغت استراتيجية ايران وسوريا وتم الألتزام بها خلال قمتهما التي انعقدت في ١٦آذار٢٠٠٣ في طهران.وعقد الرئيس السوري بشار الأسد اجتماعاً مطولاً مع آية الله علي خامنئي بحضور الرئيس الايراني محمد خاتمي. أوردت مصادر دبلوماسية ايرانية رفيعة النقاط الرئيسة التي تضمنها لقاء خامنئي والأسد. وأوضح خامنئي بأن "تحولات الموقف الجيوبوليتكي في المنطقة هي أكبر من قدرات وموارد اميركا، ولاحظ كذلك أنه وبينما تتوقع هي احتلال العراق فإن "المقاومة التي ستبديها مختلف الأمم ستشكل في النهاية ضربة قاصمة للأميركان، وستؤدي الى تفكك تلك الدولة وعدم بقائها قوة عظمى". لقد نظر خامنئي الى الحرب من منظر ديناميكية المنطقة الأشمل والذي "تعدٌ فيه المقاومتان الفلسطينية واللبنانية القوة الحقيقية والتي تشكل حاجزاً مهماً بوجه تحقيق الاهداف الاميركية".

وفي هذا السياق حذر الأسد من أن "أميركا تسعى لفرض حاكم عسكري على الشعب العراقي. رغم أن الجماهير العراقية تعارض وترفض الاحتلال. وفي النهاية سيمزق صمودهم ورفضهم هذين أميركا ويدحرها".

لاحظ الأسد كذلك "أما الأهداف الأخرى التي تسعى اميركا من خلال نقل قواتها الى المنطقة فهي تعزيز قوة النظام الصهيوني ودحر الانتفاضة". وتنبأ بأن التأثير المتزايد لحروب التحرير الشعبية الاقليمية ستكون مدمرة للولايات المتحدة ."

وقال خبير من مستشاري المرشد قبيل تلك القمة بأن خامنئي "أكد أن كل شعوب المنطقة ستقاوم أميركا.. وأن الحقد ضد أميركا يتصاعد".وقال النائب الايراني مجيد أنصاري: "نحن نأمل بأن الأميركان سيتورطون في المستنقع العراقي ويفشلون في تحقيق سياساتهم العدوانية والتوسعية."

كان الاتجاه العام في دمشق عدائياً كذلك.ففي ١٧آذار جاء في مقال أفتتاحي في صحيفة البعث الرسمية أن زيارة الأسد "أرست خطوة مهمة في الجهود السورية السياسية والدبلوماسية المركزة في الوطن العربي وعلى المستوى الدولي". وألقت هذه الافتتاحية الضوء على الجانب الفلسطيني للأزمة "تهدف الجهود السورية كذلك التحذير ضد المجازر والأعتداءات الغاشمة والتطهير العرقي الشامل ضد الشعب الفلسطيني والتي تشنها اسرائيل ضده بينما ينشغل العالم بما فيه العرب بالحرب المتوقعة ضد العراق..وعلى هذا الأساس تبذل سوريا وايران جهوداً مشتركة لا تتوقف فقط في المساعدة وتقوية وتوضيح ودعم وارساء الموقف العربي – الأقليمي –الأسلامي المتواصل في ايقاف الحرب ومعارضتها، واتخاذ جميع الخطوات والاجراءات الضرورية لمنع الحرب وتجريدها من أي غطاء شرعي."

امتداد للموقف الإيراني

أخيراً وفي ١٨آذار حدد مقال افتتاحي في صحيفة طهران تايمز وجهة نظر خامنئي للأزمة- والناجمة برأيه من التعاون الطويل الأمد بين بعض الدول العربية واميركا وليست كنتيجة للحرب المقبلة على

العراق فقط. "نحن على ما نحن عليه اليوم لأن معظم الدول وعددا من القادة سمحوا لبوش والمتآمرين معه ومنذ أمد طويل بمواصلة العمل بمشروعهم في أمركة العالم.. هذا الكابوس العالمي الذي بدأ مع السيطرة التامة على نفط الشرق الأوسط و الأمان الكامل للقيادة الأسرائيلية البربرية، وخططهم المفضوحة التي أعدوها قبل قرن كامل من الزمن للسيطرة على "جميع الأرض ما بين النيل والفرات."

من الناحية العملية أستنتجت دمشق وطهران أنهما لا تمتلكان القوة الكافية لمنع الهجوم ، لذلك بات هدفهما الرئيس العمل بعد الحرب فوراً لمنع اميركا من اكمال وفرض سيطرة فعالة على العراق وتشكيل حكومة في بغداد واستغلال انتصارها لفرض نفوذها عبر الشرق الأوسط.

في ١٧/آذار أي اليوم التالي لقمة طهران أعلن حزب الله التعبئة على طول الحدود اللبنانية – الاسرائيلية وجاء بتعزيزات الى المنطقة. بدأت هذا القوة الجدية بنشر سلسلة من راجمات الصواريخ في منطقة شبعا القريبة من حدود شمال أسرائيل وشحنت معظم تلك الصواريخ من ترسانة حزب الله الرئيسة في سهل البقاع اللبناني. واصل رماة حزب الله اطلاق نيران مدفعية مضادة للطائرات على الطائرات النفاثة الاسرائيلية وكذلك على المدن والقرى الأسرائيلية.أرسل حزب الله عناصر ومجموعات استطلاع ارتدى معظمهم ملابس مدنية وتظاهروا أنهم من الرعاة الى الحدود لجمع المعلومات عن الوحدات الاسرائيلية. لكن

اسرائيل كانت تعرف ما سيعنيه تجدد القتال في لبنان وشمال اسرائيل والذي لو وقع فعلاً فسيعرقل المجهود الحربي في العراق، فآثرت عدم الرد على مناورات حزب الله.

مع اقتراب الحرب استجاب آلاف المجاهدين– عرباً وباكستانيين وأفغانا وشيشانا- لنداء صدام لحمل السلاح والتوجه نحو العراق، وقد سمحت ايران وسوريا لهؤلاء بالمرور عبر أراضيهما دون وثائق سفر.

متطوعون وإرهابيون

جند متطوعون اضافيون معظمهم من أنصار القاعدة في حرب ضد اميركا من قبل المخابرات العراقية في الأردن، ودرب القسم الأعظم من هم في السعودية واليمن على القنابل الانتحارية [البشرية] وعمليات اختطاف تستهدف الجنود الاميركان. وضم معسكر سعد في بعقوبة شمال شرق بغداد قاعدة التدريب الرئيسة وتولت وحدة الأمن الخاصة بقصي صدام حسين وهي من جهاز الأمن الخاص تنظيم وادارة التدريب. تم تدريب حوالي(١٣٠) متطوعا اسلاميا في معسكر سعد هذا على "قتال المدن"، ودرب(٢٥٠٠) لبناني الجنسية على الأقل في معسكرات أخرى للأمن الخاص.

وعند اندلاع الحرب أرسلت منظمات ارهابية أخرى على صلة بالقاعدة الى العراق آلافا آخرين من الارهابيين. نظمت قوة فدائيي صدام التي يقودها عدي صدام حسين برامج تدريب مكثفة لتلك القوى الاسلامية. وتعد مجموعة "لواء الجهاد والدعوة" السلفية

من متطوعي الجزائر للقتال هي القوة الأكبر والأكثر أهمية وتضم نحو ٧٠٠ مجاهد. وقد أوضح نعمان بن عثمان الخبير بالمنظمات الاسلامية أنه ونظراً لرفض المتطوعين الاسلاميين العمل تحت قيادة أو اشراف أية مجموعة علمانية كحزب البعث فلابد من أن قيادة الارهابيين قد توصلت مع صدام الى اتفاق بمنحها حرية العمل ضد أهداف أميركية.

كان للقصف الكثيف الذي تواصل ليلة ٢١ آذار تأثير مباشر ولو عن غير قصد على الانتشار الاسلامي الحالي في العراق. وفي ٢٠ آذار ولأول مرة تصدت طائرات التحالف للدفاعات الجوية العراقية الجاري اعادة انتشارها ومع أول مثال أو تجربة لاشعال نيران واسع للخنادق التي ملئت بالنفط الأسود لاقامة سدود كثيفة وحجابات من الدخان الأسود. ولتجنب المزيد من مثل هذه العراقيل حلقت الطائرات الأميركية والبريطانية عبر الأجواء الأيرانية لضرب بغداد من أقل المناطق والاتجاهات حماية وخطراً.فأطلقت قوات الدفاع الجوي الايرانية نيراناً عشوائية كما لو أنها تريد اشعار طياري التحالف بأنهم في موقع غلط لا بقصد اسقاط تلك الطائرات.

في ٢٢/آذار أنهمكت طهران ودمشق في صياغات بلاغية مفصلة حول تطبيق وانجازات استراتيجيتهما فيما يتعلق بالحرب في العراق، إذ أثار الخرق الأميركي المبكر للأجواء الايرانية القيادة الأيرانية. عند ذلك وصل فجأة ناجي صبري الحديثي وزير خارجية العراق الى دمشق في مهمة لم يعلن عنها لمناقشة الصفحة التالية للحرب. بدا صبري في البداية مهتاجاً ويهدد ويتوعد بخصوص معركة بغداد القريبة جداً وبخصوص انجازات عسكرية عراقية

أخرى. ومع ذلك ؛سرعان ما بدأ تحقيقاته عن خطط ترحيل نخب القيادة السياسية العراقية إن دعت الحاجة.

لمست طهران ودمشق قلة صلابة ووهن في موقف وعزم صبري، كما لاحظنا ما يشير الى وهن في موقف بغداد. وبينما أكدت سوريا التزاماتها بمساعدة العراقيين بكل شيء عدا خوض الحرب لأجلهم أو معهم، بدأت طهران ودمشق سلسلة من المشاورات عن استراتيجيتهما التي ستنفذ بعد الانهيار المحتوم للعراق!

الدعم السوري

وبرغم الموقف البالغ السوء لنظام صدام قررت سوريا دعم الاستخبارات العراقية بشكل فعال وتوفير قواعد عمل وانطلاق لمفارز ومجموعات الانتحاريين لمهاجمة المصالح الأنكلو-أميركية في الشرق الأوسط. كان معظم عناصر هذه المفارز من العراقيين - من فدائيي صدام أو متطوعة المسلمين الذين دربتهم منظمة فدائيي صدام. ووفقاً لمصادر استخبارية تركية وعربية فقد وصلت أول مجموعة الى دمشق في ٢٩/آذار. تألفت هذه المجموعة من (١١) عراقياً وعشرة مصريين زودوا جميعاً بجوازات سفر أصلية صادرة من عدة دول خليجية ، حيث كانت دمشق قد أوفدتهم للحصول عليها وفي سفرات مختلفة. وخلال بضعة أيام قليلة تالية عبرت مجموعة واحدة أخرى على الأقل ومؤلفة من أكثر من (١٥) ارهابياً عبر دمشق ولكنها اتجهت في هذه المرة الى أوربا الغربية.

في نيسان تصاعد الهياج الموالي للعراق في الوطن العربي وتزايدت بالمقابل أعداد المتطوعيين الاسلاميين الذين تقاطروا الى العراق

عبر سوريا والأردن. وحتى ٧/نيسان قدرت دوائر الأمن الأردنية عبور أكثر من ٥ الاف الى ٦ آلاف عبر الأردن وحدها الى العراق منذ اندلاع الحرب. أطلقت نخبة من القادة والأساتذة والعلماء أصواتهم بالدعوى الى الجهاد وحمل السلاح. وأقر شيخ جامع الأزهر والمرجع السني الشيخ طنطاوي استخدام العمليات الاستشهادية ضد قوات الائتلاف في العراق. وخلال بضع ساعات من فتوى الشيخ طنطاوي أبلغت دوائر الأمن المصرية عن زيادة هائلة ومضاعفة في أعداد جموع المتطوعين المصريين الى العراق عدة مرات.

شيعة العراق

بيد أن الأمر الحيوي والحاسم والأكثر أهمية في تقرير مستقبل العراق يتركز في قلب أرض الشيعة، وبالأخص المدينة المقدسة/النجف الأشرف. وقد أدركت واشنطن ولندن منذ أمد بعيد أهمية الحصول على دعم السكان الشيعة ، ولو لأنهم يشكلون فقط حوالي ثلثي سكان العراق.تصورت أو ؛أقتنعت واشنطن وقبل الحرب ؛بأن الشيعة سيكونون شاكرين كثيراً وممتنين للأميركان والبريطانيين لتحريرهم من النظام القمعي لصدام حسين. لذا وحال التوصل الى اختيار قائد شرعي ومقبول فإنهم سيتعاونون بقوة مع سلطة الائتلاف. وهكذا فشلت واشنطن في تفهم أمرين هما:الرفض الشيعي العنيد لـ [سلطة و/أو وصاية]أي حاكم غير مسلم مهما كان متفهماً وعطوفاً، مثلما يرفضون توسع النفوذ الايراني على حساب شيعة العراق.

مجيد الخوئي في النجف

ولاغفالهم أو جهلهم حقيقة وموقف شيعة العراق حاول الائتلاف [لعلها بريطانيا فقط]كسب الشيعة بإرسال قائد شيعي واعد هو عبد المجيد الخوئي سليل احدى أكثر العوائل الشيعية الدينية في العراق وكان – أي عبد المجيد (٤٢عاماً) -أصغر أنجال آية الله السيد أبو القاسم الخوئي المرجع الديني لشيعة العراق والذي لعب دوراً مباشراً في الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١م ضد صدام حسين والذي تعرض لذلك لسخط النظام. وبعد الانتفاضة فرّ بعض أفراد عائلة الخوئي، ومنهم عبد المجيد الى بريطانيا للاقامة فيها، وتولى ادارة أموال ومشاريع الخوئي التي تعد أحد أبرز الجمعيات الاسلامية الخيرية في الغرب. وفي لندن برز عبد المجيد الخوئي وانهمك في أنشطة اسلامية حرة ومعتدلة وكذلك في العلاقات بين الأديان والسياسات الحرة ومن خلال ذلك أصبح صديقاً شخصياً لتوني بلير. لذا وبطلب من توني بلير نفسه انهمك عبد المجيد الخوئي في أنشطة وفعاليات العراقيين المهاجرين عام ٢٠٠٢ وفي نيسان ٢٠٠٣م وافق على العودة الى العراق لاقناع وتهدئة شيعة العراق.

عاد عبد المجيد الخوئي الى النجف المبتهجة في ٤/نيسان.وقد استقطب اسمه وحضوره ومركزه جموعاً حاشدة كبيرة واتصل خلال بضعة أيامه الأولى في النجف بالسيد علي السيستاني – المرجع الشيعي الأعلى في الحوزة العلمية ؛والمدرسة الدينية في النجف وأقنعه باصدار فتوى تحض جميع الشيعة بعدم مقاومة الأميركان ولا عرقلة أعمال القوات الغازية بأية طريقة كانت. كان

ذلك انجازاً كبيراً للقيادة [الشيعية]المعتدلة بوجه وضد التصميم الايراني للسيطرة على شيعة العراق.

إحراج السيستاني

سرعان ما تحركت ايران التي بوغتت بموقف السيستاني لاصلاح الضرر ولاستعادة السيطرة. أولاً :أصدر قادة شيعيون عراقيون كبار مقيمون في قم وممن كرسوا جهودهم ووقتهم للحوزة العلمية توضيحاً لقلب أو تليين فتوى السيستاني التي لاتجوز معارضتها أو ألغاءها.وفي الوقت نفسه أطلقت العنان لمن يوالونها من رجال الدين في النجف لتهييج الجماهير ومطالبتهم بترك السيستاني النجف خلال ٤٨ ساعة دون أن تجرؤ تلك الجماهير على ايذاء قائد مبجل لذلك حاصرته وأجبرته على الاقامة الجبرية في داره.

ولم يكن ذلك كافياً فقررت ايران التخلص من [عبد المجيد] الخوئي بطريقة ستجعل مصيره فيها عبرة لكل رجل اصلاحي آخر. وفي ١٠/نيسان هاجمت مجموعة صغيرة عبد المجيد الخوئي وأحد أصحابه خارج صحن جامع الامام علي. ثم قطع القتلة أوصالهما بالسيوف والخناجر والسكاكين.

أبلغ مصدر استخبارات غربي أن "ما من شك بأن الخوئي كان هدفا للاغتيال وقد قدمت طهران عدة دلائل على أن الخوئي يشكل تهديداً لمصالحها". وفي الحقيقة أزال اغتيال الخوئي أية عوارض أو اعاقات ومهما كان نوعها تقف بوجه مشاريع وتصاعد نفوذ ايران.

صيغت أو أعدت السياسة الرسمية لأعمال ايران في نيسان (٢٠٠٣م) وخلال مؤتمرعالي المستوى في طهران حول "الهجوم الأميركي على العراق.. دراسة وتحليل مستقبل المنطقة". كان أبرز المتحدثين هو الدكتور محسن رضائي الرئيس السابق للحرس الثوري الاسلامي والرئيس الحالي لـ "مجلس مصلحة النظام. وقد أكد أن طهران ستدرس الموقف بشأن العراق على ضوء المصالح الايرانية الاقليمية المحددة والحرب الأميركية الأكبر ضد الاسلام.أما على المدى البعيد والأوسع فما من شك على الأطلاق بهزيمة أميركا نهائياً "لأن اليقظة الاسلامية في جنوب غرب آسيا تعد من بين أهم التحديات التي تواجه الأميركان" ويمضى د.رضائي قائلاً "وأن ظهور جماعة القاعدة والهجمات على واشنطن ونيويورك تمثل مجرد دلالات واضحة وهامة في هذا الاتجاه ، وتشكل أوجه اليقظة الاسلامية هي الأخرى تهديداً آخر لأميركا ؛كما توجد ألوان كبيرة أخرى لمثل هذه التهديدات في المنطقة".وادعى رضائي بأن "أميركا سوف لن تكون قادرة على احتواء اليقظة الأسلامية". ثم أضاف "وحتى في المناطق التي تم فيها احتواء اليقظة الاسلامية لم يقض على التهديد."

ومع ذلك فرضائي يعرف أن المخاطر التي سببتها التحديات الناجمة عن الحرب على الأرهاب ستظل وعلى المدى القريب مزعجة للدول راعية الارهاب في العالم الأسلامي. فـ "هدف أميركا الرئيس هو تغيير الأنظمة وأن تظل [في المنطقة] حتى وصول أنظمة جديدة الى السلطة. وحين يصل نظام عميل جاؤوا به فسيظل يعمل خفية وراء ستار وحيث يمكنهم مواجهة التهديدات..لذلك يحاول الأميركان فرض تحولات سياسية جذرية في جنوب غرب

أسيا و الشرق الأوسط ".تشكل استراتيجية كهذه تهديداً مميتاً للنظام الايراني وعلى الأخص في المستقبل القريب لعدم امتلاك ايران لذلك النوع من قوة الردع القادرعلى منع اميركا من الهجوم. لذا تهدف استراتيجية ايران في العراق التعويض أوسد هذا العجز [الايراني] بحرمان الاميركان من القدرة على استخدام العراق كمنصة أو نقطة وثوب ضد ايران.ولاحظ محسن رضائي أن هذا الهيجان في العالم الاسلامي والعداء الواسع المدى للأميركان "سيوفران فرصاً جيدة للجمهورية الاسلامية الايرانية وأنه وباستغلال تلك الفرص فلن تكون ايران قادرة على تجنب أو دفع الحرب بل والمضي بتحقيق المصالح الايرانية.“

فمن وجهة نظر طهران فإن الأمر الأشد نفعاً وجدوى هو جرّ اميركا الى حرب عصابات طويلة ومربكة، وأن "اللبننة" ستقود الى انسحاب مخزٍ. وأكثر من ذلك فسيتحقق هذا المخطط بأقل المخاطر نسبياً لايران لأنها ستعتمد في تنفيذه على أنصارها المحليين والذين لديهم جميعاً أسبابهم الخاصة لمحاربة القوات الأميركية الغازية. وفي ٦/نيسان نشرت صحيفة (كيهان) مقالة مهمة بقلم رئيس التحرير حسين شريعة مداري ألمح فيها الى هذا المنحى الجديد في التفكير في طهران قائلاً: "إذا تحولت هذه الحرب التي تشنها اميركا وبريطانيا ضد العراق الى حرب استنزاف لهما معاً فسيكون ذلك لمصلحة العالم الاسلامي. وأكثر من ذلك فقد اتضح بأن الأميركان وبغض النظر عن ادعاءاتهم السابقة عاجزون عن احتلال العراق“. ولاستغلال وتسريع الحرب غير النظامية من قبل أصدقائها فان ايران ستساعد أية مجموعة أو منظمة راغبة وقادرة على قتل أميركيين وزعزعة الوضع في العراق.

في ٨/نيسان أصدر أية الله كاظم الحسيني الحائري، العراقي المولد والمقيم في قم ، فتوى يوصي فيها رجال الدين الشيعة في العراق "باستغلال أية فرص متاحة لملء الفراغ في الإدارات في مدن العراق". وأكدت فتوى الحائري البراغماتية وأوعزت الى قادة شيعة العراق "بإشغال أكثر ما يمكن من المناصب لفرض الأمر الواقع على أية حكومة قادمة".

أكد الحائري كذلك على توجه جميع المؤسسات والمنابر الشيعية ضد الأميركان وبأقوى ما يمكن.وتضمنت فتوى الحائري أيضاً "ويجب أن يتعلم الشعب ألا ينهار معنوياً أمام قوى ووسائل الشيطان الأكبر إن بقي هذا في العراق“. وتمضي فتوى الحائري لتؤكد بأن الشيطان الأكبر "سيحاول نشر ما يفسد المعنويات وينشر الفساد بتوفير وتسهيل الوصول الى الفضائيات التي تروج للدعارة ونشر وتشجيع الفساد والرخاوة والتملص من الواجبات لاضعاف الايمان بين أبناء الشعب". ثم وبشيء لافت للنظر أنهى توجيهاته وفتواه بتعيين مقتدى الصدر ممثلاً له وأكبر مريديه في العراق .“

في ١٣/نيسان نظم أول حشد جماهيري للشيعة في النجف ضد السيستاني ولدعم الخط الايراني. تلاه حشد واستعراض جماهيري شيعي في بغداد وعلى الأخص في مدينة الصدر. وقال رجل دين بارز في مدينة الصدر ”نحن نسيطر على كل العراق وعلى الأخص الوسط والجنوب وليس على بغداد فقط “. تتنافس القيادات الشيعية من أجل تأمين وفرض سيطرتها وهي لن تتساهل مع التحديات التي تبديها جماعات المعارضة العائدة من الخارج

والمدعومة من الغرب. وفي دمشق حذر القائد المعارض جواد الخالصي بأنهم يجازفون وأن مصيرهم جميعاً سيكون نفس مصير الخوئي.وأوضح بان قتلة الخوئي "اناس غاضبون أثارهم مرأى قوات الاحتلال". وأكد الخالصي بأن رموز المعارضة سوف لن يكونوا موضع ترحاب (شيعة العراق) وسيحشرون مع الغزاة، مقترحاً عليهم ترك العراق فوراًوالعودة من حيث أتوا.

في منتصف نيسان تعقد الموقف في العراق وتداخل بشكل بات معه عصيا على السيطرة. ولم تجد القوات الأميركية المرتبكة أمام ما يفوقها من أعداد الجماعات الأخرى سوى التحرك برد فعل انسجاماً مع التحركات المحلية الرئيسة وظلت تحاول يائسة الابقاء على مستوى الأحداث وسط سيل من التحولات التقليدية المحلية المتناقضة ووسط الفوضى العارمة التي تفجرت مع انهيار النظام. وفي بغداد أخذت أعمال النهب والتخريب بالتصاعد وتحولت الى معارك وقتالات شوارع بين المجموعات والعصابات المتناحرة، ووقعت القوات الأميركية وسط كل ذلك وهي تحاول تهدئة العنف المتدفق مكروهة من قبل جميع الأطراف المتقاتلة.

الأكراد والأميركان

تفجرت الجبهة الشمالية في ١١/نيسان حال انتشار خبر دخول القوات الأميركية بغداد. فقد تحركت قوة كردية محلية في كركوك بينما عمت فوضى عارمة وشاملة الموصل. وكانت النتيجة أن جرت الولايات المتحدة من قبل حلفائها الكرد لاجتياح كركوك والموصل على عكس حكمها الصائب وبخلاف عدد من الاتفاقيات

التي توصلت اليها مع الأتراك والعرب المحليين، وحتى مع القوات العراقية التي كانت على استعداد للاستسلام وفق شروط منتظمة. توخت كل تلك الاتفاقيات منع أية مجموعة عرقية محددة، وعلى الأخص الكرد، من التحكم والسيطرة على حقول نفط شمالي العراق. ومع ذلك بدأ الكرد الذين كانوا على معرفة مسبقة بتلك الوعود والترتيبات الزحف وفوراً باتجاه المدن.

هدد القادة الكرد القوات الخاصة للولايات المتحدة بالطرد وحتى بمقاتلتها ما لم تتعاون معهم وتؤمن لهم اسناداً جوياً – وكان يوجه حينها ضد القوات العراقية التي وافقت تواً على الاستسلام. ولعدم رغبة القوات الخاصة الأميركية بأن تطرد خارج كردستان خضعت لمطالب الكرد وتوالت الطائرات بتنفيذ القصف المطلوب. ولم يكن مستغرباً أن العشائر العربية والقوات العراقية صغيرة الحجم نظمت نفسها في شمال غربي العراق بهدف رئيس هو التصدي للوجود الكردي في كركوك. ولقلقها من تصاعد التوتر ومما يعد له الكرد. وتحسباً منها للتوتر القائم ، وعدت الولايات المتحدة بأن يترك الكرد كركوك والموصل خلال ١٢ساعة .

ولكن الكرد لم يظهروا يأبهوا لذلك ولم يكن لدى الأميركان قوات كافية لاخراج الكرد بالقوة. ومع مساء ١٢/نيسان كان للقطعات الأميركية مجرد سيطرة اسمية فقط على الموصل وكركوك بعد أن أنابت عنها بعض الكرد وبعض القطعات الأخرى المعسكرة على حافات المدينتين.

كان على الولايات المتحدة تهدئة القبائل العربية، لأن الوحدات الأميركية مازالت بعيدة عن مركز برامج أسلحة الدمار الشامل

العراقية – والقريب من مركز اقامة القبائل العربية. وفي ١١/ نيسان بدأت القوات الأميركية التقدم نحو(القائم) بينما واصلت الطائرات قصف عدة أهداف داخل مثلث تكريت – سامراء - رمادي لمنع القطعات المحلية من التصدي للقوات الأميركية المتقدمة. كان تمركز معظم القوات العراقية في القائم رائعاً ولم تمس الحرب وآثارها معظم تلك القوات. وعلى سبيل المثال لم تصب نيران القصف الجوي أياً من أوكار الطائرات ولا المباني المموهة بألوان متعددة لاخفائها.

والسبب الرئيس وراء الامتناع عن توجيه الغارات الجوية لتلك الأهداف هو افتراض الولايات المتحدة المعقول بأن معظم أسلحة الدمار الشامل العراقية ربما جرى تخزينها في تلك الأوكار والمباني المموهة القريبة وأية ضربة قد تلوث مناطق واسعة. وحال بدء تقدم القوات الأميركية نحو القائم لوحظ العديد من الفعاليات المتزايدة في تلك المباني المزخرفة على طول نهر الفرات. وتحت ستر الظلام تم نقل العديد من المعدات الضخمة والدبابات والحاويات من مواضعها المخفية وأخذت عبر الحدود القريبة الى سوريا.

السوريون

ومع إطباق القوات الأميركية على القائم جوبهت بمقاومة عراقية كثيفة وبالغة الكفاءة. وقال أحد المسؤولين العسكريين: لو قاتل العراقيون بهذه الضرواة في المواقع الأخرى لكان الأميركان متوقفين حتى الأن على أبواب مدينة الناصرية. تركز القتال على اعاقة التقدم الأميركي وأخذه بعيداً عن مناطق معينة، ونفذته قوات

عراقية منتخبة ومتميزة.اللافت أن القتال والفعاليات في منطقة القائم أديرت وتمت قيادتها من موقع قيادة عراقي وسوري متقدم جديد أقامته الحكومة السورية في (البوكمال) عبر الحدود وعلى مقربة من القائم.وما زالت مقرات البوكمال تدير وتشرف على أنشطة الاستخبارات والعمليات الخاصة المتعلقة بالعراق.

كانت طهران ودمشق تستخدمان عملاءهما لاستغلال غياب قوات الولايات المتحدة لاتمام سيطرتهما على أجزاء استراتيجية من العراق. وقد وفرت الاستخبارات السورية الأسلحة الثقيلة من صواريخ موجهة بالسلك ضد الدبابات الى صواريخ سام أرض جو (صواريخ تطلق من على الكتف ضد الطائرات) كالتي استخدمها المجاهدون الذين قاتلوا الأميركان في بغداد. وعلى سبيل المثال أسقط متطوعون سوريون طائرة F-١٠ للقوة الجوية الأميركية فوق بغداد مستخدمين صواريخ سورية الأصل. لقد توقعت سوريا الكثير من المقاومة العراقية الجديدة، وسارعت صحيفة الثورة السورية بالقول في مقال افتتاحي "العراقيون توقفوا فقط لالتقاط الأنفاس وسريعاً سيوجهون ضربات موجعة للغزاة".

وعلى طول شمال العراق اعتمدت سوريا على قبائل شمر التي تمتد مضاربها على طول شمال شرق سوريا وشمال غرب العراق. وهناك دعم واسناد سياسي عربيين لقبائل شمر في كل الوطن العربي لتزواج مشايخ وكبار رجال شمر مع معظم العوائل الملكية العربية. واللافت أن الزوجة المفضلة للأمير عبد الله ولي العهد السعودي(الملك الحالي) من شمر في سوريا. وقد أمد الجيش السوري (شمر) بكميات كبيرة من الأسلحة والمعدات، وهناك

العديد ممن ينحدرون من قبيلة شمر في سوريا في الاستخبارات والقوات الخاصة السوريتين، وهم على استعداد للتطوع لنجدة أخوانهم عبر الحدود. واعتماداً على شبكة الصلات هذه أقامت سوريا مجموعة من القواعد الأمامية في صحراء غرب وشمال غرب العراق كنقاط انطلاق للأعمال الارهابية ضد الأميركان ولتوسيع دعمها للأكراد.

ساعدت قبائل شمر مجموعتين رئيستين (وعدداً من مجموعات أصغر) في العراق: وضعت مجموعات المتطوعين السوريين تحت قياد مشعان الجبوري وتحظى بدعم المخابرات السورية وكان الباقون تحت قيادة وفيق السامرائي رئيس الاستخبارت العسكرية العراقية [الأسبق] والذي نشط قرب الموصل. برزت قوة السامرائي كنقطة اتصال [وحشد] رئيسة مع مجموعات المقاومة العراقية الأخرى وكنقطة توزيع للأسلحة والأموال والامدادات الأخرى القادمة من المخابرات السورية الى المقاومة العراقية. سرعان ماغيرت هذه الفعاليات ميزان القوى في الموصل لأن معظم سكانها من عرب قبائل شمر والتركمان.ونظراً لمنع الأميركان الشديد للاستخبارات التركية من مساعدة التركمان باتت اليد العليا للدعم السوري لشمر وفي الوقت نفسه غالباً ماكانت القطعات الأميركية تشتبك مع فدائيين ومليشيا البعث ومجموعات متنوعة من الأصوليين في كل من تكريت وبغداد.ثم بدأت دائرة الأشتباكات بالأتساع الى مناطق أخرى عبر العراق مع وقوع العديد من الحوادث العرضية بالتزامن مع ما تقوم به الولايات المتحدة من أنشطة وفعاليات.كان لابد من اعتبار أحداث الموصل في ١٥/نيسان مؤشراً على ما سيحدث مستقبلاً وذلك حين اقتحم

حشد من الناس دورية مارينز بينما كان المحافظ الجديد الموالي للأميركان يحاول القاء خطاب، فتح المارينز النارعلى الحشد فقتلوا عشرة مدنيين وجرحوا مثلهم وأكثر كان معظمهم غير مسلحين.اندلع العنف والفوضى والاشتباكات المسلحة في شمال العراق.

معدات الجيش بيد الأكراد

استمر التوتر وازداد في كردستان العراق خلال النصف الثاني من نيسان.بدأ قلق الكرد يتزايد من خيانة الولايات المتحدة لهم وأنها لن تعمل على نيلهم لحقوقهم القومية. وفي الوقت نفسه واصلت القوات الخاصة التركية – مرتدية عادة ملابس مدنية عملياتها في كركوك بتسليح وتدريب وتنظيم مليشيا تركمانية. ويخشى القادة الكرد من أن قواتهم التي انسحبت من الموصل وكركوك ومدن أخرى سيمنعون من اعادة اسكان الكرد المهجرين الى مدن سكناهم، أي شل قدرتهم على مواصلة تكريد Kurdization مدن النفط والمناطق الاستراتيجية التي أخليت من الكرد أو تعرض هؤلاء الى عمليات تطهير وتهجير. وأدى ذلك الى أعمال عدائية متبادلة وفقدان الثقة وتولد مرارة بين الكرد والأميركان. لذلك قرر الحزبان الكرديان الديمقراطي الكردستاني والأتحاد الوطني الكردستاني الأحتفاظ بكل ما نالوه من غنائم الحرب لأنفسهم. فاحتفظ البرزاني بـ (٣٤) دبابة و(١٤) ناقلة أشخاص مدرعة و(٣٧) مدفعاً ومجموعة متنوعة من الصواريخ والأسلحة الخفيفة.

أما الطالباني فقد جمع (٢١) دبابة و(١١) ناقلة أشخاص مدرعة وأربع شاحنات ومجموعة خاصة من الصواريخ والأسلحة الصغيرة (لا تشكل هذه سوى أرقام هامشية لما استولى عليه الأكراد من أسلحة ومعدات الجيش العراقي المتنوعة) ما أثار غضب الولايات المتحدة بحق حول:من ستتحول (تستخدم) هذه الأسلحة ضده؛ وكما حدث في أواخر نيسان حين حشد الحزبان معظم وحداتهما ضد بعضهما البعض ؛ وكانت تركيا والمفارز الأميركية الصغيرة في المنطقة أما عاجزة أو غير راغبة بالتدخل.

الاستخبارات السورية

في الوقت نفسه كان انشاء مقر البوكمال اعلانا شديدا وقويا عن مضي دمشق في اسناد القيادة العراقية. التزمت سوريا جدياً وبقوة ليس بمساعدة القيادة العراقية بالتملص من القوات الأميركية في بغداد وحسب ولكن بإقامة قاعدة في المنفى لبقايا النظام البعثي ليواصلوا المقاومة في العراق كذلك.كان يوم ٩/نيسان نقطة تحول في الالتزامات السورية: فقد كانت الولايات المتحدة تدرك أن عدة دول شرق أوسطية وسوريا وليبيا بالذات تساعدان في اخلاء شخصيات مهمة من بغداد، مما دفع رامسفيلد الى القول أن لدى البنتاغون "نتف استخبارات تقول أن سوريا تتعاون في تسهيل حركة أشخاص من العراق اليها".

وقد سخر المعلق السوري عماد شعيب القريب من النخبة السياسية من الادعاءات الأميركية قائلاً: "ليست سوريا قلقة حول ما يقال.ولايحتمل قطعاً أن ترقى هذه الادعاءات الى تهديدات" وتابع "لم ألحظ أية تهديدات في الادعاءات الأميركية بل أنها كانت أخف لهجة حتى من سابقاتها".

ورغم تدفق كبار المسؤولين على دمشق منذ ليلة ٥/نيسان لكن وصول قصي صدام حسين ومجموعة من كبار القادة في ١٠/نيسان بدء عملية أخلاء منظم كان وراء دفع دمشق للعمل. ففي وقت مبكر من ذلك اليوم (١٠/نيسان) شوهد كل من صدام وقصي وعبد حمود وهم يدخلون مسجداً في الأعظمية في بغداد. وبدا كأن عملية هروب منظمة ومجهولة بعد والتي ربما تضمنت استخدام وسائل نقل سرية ومموهة وربما عبر قناة سرية - كانت بانتظارهم.

وبعد ذلك فوراً وصل قصي دمشق بينما انتقل صدام الى مكان خفي داخل العراق – والأرجح أنه في صحراء شمال غرب العراق.عبر آلاف المسؤولين العراقيين الى سوريا ورحب بهم ضباط من المخابرات السورية و"مستشارون" من السفارة العراقية في دمشق. تولت مجموعة من موظفي سوريا والعراق مقارنة اسماء الواصلين مع قوائم كانت معهم، وأرسل من تمت تزكيتهم الى عدد من مجموعات المخابئ- عادة تكون في الأرياف والمصايف وأماكن الراحة التي تستخدم من قبل الحكومة السورية –أعدها ونظمها العراقيون مسبقاً.

نصحت دمشق طرابلس ببدء عملية/برنامج اخلاء في صباح ٩/نيسان، وتمت عملية اخلاء أول نخبة VIP الى ليبيا على طائرات النقل ’اليوشن٧٦-١١ ، للقوة الجوية الليبية. أقلعت هذه الطائرة من قاعدة عقبة بن نافع الجوية قرب طرابلس الى دمشق في الساعة الـ ٦ مساءً. ومن دمشق نقلت (٧) سيارات مع عدد كبير من الحقائب والأمن [أرجال أم معدات ؟]. وفي الساعة ٦:٣٠ مساء عادت الطائرة الى قاعدة عقبة بن نافع الجوية. وفي ١٠/نيسان نقل المسافرون على متنها الى مكان غير معروف. وأخيراً فقد وصل بعض أعضاء عوائل النخبة العراقية الى مجمع عائلي خارج بنغازي في ليبيا. وانتقل قصي ومجموعة من كبار المسؤولين العراقيين الى ليبيا عبر دمشق في ١٣/نيسان. ففي ذلك اليوم شوهد رتل من سيارات الليموزين بلوحات عراقية في مطار المزة في دمشق حيث تبع ركابها قصياً الى ليبيا.

كانت باريس المكان الآخر لعدد من VIP مسؤولي وقادة العراق. طارت أول مجموعة اليها- وضمت مجموعة من العلماء والجواسيس الذين زودتهم السفارة الفرنسية في دمشق بوثائق سفر فرنسية الى فرنسا ليلة ١٤/نيسان. كانت فرنسا قد قررت اخفاء كل عراقي يمتلك أية معلومات عن حجم التعاون الفرنسي مع صدام في أية موضوعات حساسة، من التكنولوجيا النووية الى دعم العراق لحملات بعض السياسيين الفرنسيين.(لقد فصلت هذه الموضوعات والترتيبات في عدد من المصادر الأخرى وبشكل خاص في الكتاب الفرنسي المعنون:صديقنا صدام) .

التهديد الأميركي لسوريا

ومع تزايد الدعم السوري للقيادة العراقية، تزايدت كذلك مراقبة الأميركان لحكومة الأسد و صعّدت واشنطن من تحذيراتها العلنية لدمشق. وقال بول وولفتز في افادته أمام الكونغرس في ١١/نيسان إنهم كانوا يراقبون دمشق "عن قرب" ثم وبقدر تعلق الأمر بالادارة الأميركية فإن سوريا "لا تحسن التصرف" لذا وما لم تتغير سياسات الاسد سريعاً فسيعاد النظر في سياساتنا الأساسية نحو سوريا. وأكد وولفتز للكونغرس أن ليس للادارة خطط لارسال قوات عسكرية الى سوريا لمطاردة المسؤولين العراقيين الذين فروا، ولا للبحث عن أسلحة الدمار الشامل. وكذا سار كولن باول على نفس المنوال، فأصدر تحذيراً شديداً وخشناً لسوريا لتقديمها ملاذاً آمناً للمسؤولين العراقيين.

لم يأبه السوريون كثيراً لتهديدات كولن باول ولكنهم تخوفوا من تعليقات مسؤول كبير سابق فيCIA هو (روبرت باير) . أخبر باير هذا صحيفة Daily Star اللبنانية بأن البنتاغون "مصمم وبقوة على مهاجمة سوريا باستخدم القوات الموجودة حالياً في العراق". ثم أضاف قائلاً "من السهل النيل من السوريين. إنهم ضعفاء.هناك الكثير من الخطب الحماسية والبلاغات، ولكن يجب ان لا ننسى أن اسرائيل تريدنا فعل ذلك".الأسد والحلقة القريبة منه مقتنعون بأن تعليقات روبرت باير لا البيانات الرسمية التي تصاغ في واشنطن هي التي تعكس التفكير الدقيق في لانغلي (مقر CIA). لذلك طلب الأسد مساعدة الملك السعودي عبدالله للتدخل ومنع الهجوم الأميركي. وفي ١٤/نيسان شنت السعودية حملة دبلوماسية

للمساعدة ولمنع نشوب حرب مع سوريا ووعدت الادارة الأميركية بأنها ستقنع الأسد بالبحث عن القادة العراقيين وتسليمهم للولايات المتحدة.

وأخيراً أعاد السوريون حوالي (٦) من الأسماء الكبيرة عبر الحدود العراقية و لكنهم واصلوا توطين واسناد الاف من الدرجة الثانية من القادة والناشطين وخبراء عسكريين، بحيث ظل أكثر من مئة منهم في دمشق وحدها. ولأن دمشق ما زالت تخشى الهجوم الأميركي لذا طلبت من موسكو ابلاغ واشنطن بأن مجموعة من القادة العراقيين لن تسلم، وبينهم نائب الرئيس عزت ابراهيم الدوري، ورئيس مكتب صدام عبد حمود، وأحد قادة البعث هو عزيز صالح النومان، ورئيس جهاز الأمن الخاص هاني طلفاح، وأمين سر الحرس الجمهوري كمال مصطفى، وقائد[رئيس أركان]الحرس سيف الدين صويلح [فليح] ورئيس المخابرات طاهر جليل حبوش، وقائد الحرس الجمهوري الخاص الجنرال برزان سليمان التكريتي، وذلك لطول وعراقة علاقاتهم مع القادة السوريين الأعلين. ترجم الروس الرسالة السورية بأن الجميع ما عدا من ذكرت أسماؤهم يمكن ابعادهم.

سوريا تسليم هاربين

كان لهذا العرض أثر معاكس في واشنطن إذ اقتنع حتى المتشككين بأن دمشق تؤوي القادة العراقيين المعزولين. أبلغ دبلوماسيون عرب عواصمهم بأن البيت الأبيض والبنتاغون قد حسموا الأمر وأن ضربة أولية على سوريا ستكون قصيرة عبر حدود تعمها

الفوضى بما يتلاءم وعبارة "مطاردة ساخنة" في سياقات أو قواعد الأشتباك 'rules of engagement'ولو فشلت تلك الهجمات بتحقيق النتائج المرجوة فستوسع الولايات المتحدة الحرب ضد سوريا. ومرتعباً من هذه التقارير وصل حسني مبارك الى دمشق في ٢٠/نيسان في زيارة طارئة ومفاجئة لمناقشة الأزمة الناشبة مع بشار الأسد ، وسبل معالجتها واخمادها.أكد مبارك بأن غضب الولايات المتحدة بلغ ذروته من سوريا وأن عواقب ذلك قد تكون مرعبة.وبعد الاجتماع وافق الرئيسان على توسط مصر بين دمشق وواشنطن.

في اليوم التالي رتبت مصر تسليم أحد القادة الثمانية آنفي الذكر وهو كمال التكريتي الى القطعات الأميركية. وقد دفع هذا الجنرال عبر الحدود بين أيدي جنود القوات الخاصة التي كانت بانتظاره.كانت الرسالة المصرية الى الادارة الاميركية واضحة: فمع الصبر وجهود ومساعدة القاهرة سيمكن تحريك الأمور في دمشق. وبعد يومين سلمت دمشق رئيس وزراء العراق السابق محمد حمزة الزبيدي الذي كان مطلوباً لقتله حشوداً من المواطنين الأكراد. وقد أثار استبعاد الزبيدي توتراً بين مسلحي (مليشيا) قبيلة شمر المدعومة من سوريا والأكراد-وحدث خلاف كبير عرقل جهودهم لتنظيم جبهة متحدة ضد الولايات المتحدة وتركيا.وعودة الى القاهرة فقد حث مبارك الأميركان والبريطانيين على "إنهاء الاحتلال وسحب قواتهما في أقرب وقت ممكن" ثم دعوة الأمم المتحدة والعالم العربي لتولي السيطرة في العراق آخذين بالحسبان الحاجة الى جهود دولية مكثفة لانضاج تشكيل حكومة شرعية ينتخبها الشعب العراقي وتمثل جميع الأطراف.

وأخيراً فقد فرضت الأزمة التي قامت حول كبار المسؤولين العراقيين المختبئين في سوريا على الولايات المتحدة اعادة تقويم مسلكها (خططها) لكل الشرق الأوسط ولما بعد الحرب كلية. وفي منتصف (نيسان) خلص مسؤولون كبار في البيت الأبيض بأنه ومع عدم تحقيق انجاز كبير فعلاً الأن أو يلوح في الأفق فإن استمرار التصعيد وتوسع الحرب على الارهاب سيقلص فرص نجاح حملة الرئيس بوش الانتخابية. وفي اجتماع ضم مستشارة الأمن القومي كونداليزا رايز وكبير مستشاري بوش للشؤون الداخلية كارل روف ؛ووزير الخارجية كولن باول الذي يعدٌ اشد مناصري ضبط النفس والعمل بقوة لـ"أجل السلام".

ويبدو أن ما بدأ كسلسلة همسات وملاحظات شخصية وصل على رأس ما يطرح في اجتماعات كبار مسؤولي البيت الأبيض وحيث تتولى كوندوليزا رايز السياسات الجديدة. وأبلغ أحد كبار رجال الادارة الأميركية "ريتشارد سيل" وكالة ‘UPIs’ للأنباء "كانت رسالة رايز مركزة جداً: لامزيد من المغامرات العسكرية خلال ما تبقى من فترة رئاسة بوش الأولى."

طفى التوتر والعزم معاً الى السطح في الاجتماعات عالية المستوى بين مستشار أرئيل شارون للأمن القومي "أفرايم هالفي" وكبار مسؤولي مجلس الأمن القومي ومستشاري البيت الأبيض.جلب هالفي معه الى واشنطن آخر الاستخبارات الاسرائيلية عن المنطقة، وحين أَوضح بأن الحدية والتطرف في سوريا وايران تتطلبان رداً صارماً قبل أن يعرضا انجازات الولايات المتحدة في

العراق، أكدت رايز وبشكل حاسم بأن لن تكون هناك مغامرات عسكرية في العراق‘.اعترض رامسفيلد، مستشهداً بآخر تقويم للبنتاغون، وحين لم تتزحزح رايز عن موقفها التفت رامسفيلد الى كارل روف سائلاً اياه عن رأيه.

أعلن روف بأن الرئيس يوافق على مواقف رايز فانتهى الاجتماع. وقال مصدر مطلع وعليم باجتماع البيت الأبيض ذاك لريتشارد سيل بأن "الصقور لم يدركوا بعد بأن جميع المواقف الأكيدة السابقة قد تبدلت: كل شيء بات يتركز لا على الحرب..ولكن على انتخابات الرئاسة".

تدريب العراقيين بدأ ثانية

بعد عام تقريباً من التخبط والعشوائية وبعد انهيار برامج تدريب قوات الأمن العراقية [جيش وشرطة] تولى الجنرال ديفيد بتريوس مسؤولية التدريب تلك منتصف ٢٠٠٤م. استهدفت خطة اميركا في الأساس فرض هيمنة كاملة على العراق حتى الوقت الذي تتم فيه اعادة بناء قوات عراقية قادرة على خوض القتال. وعن ذلك يقول أحد ضباط الجيش الاميركي من الذين تطوعوا للقتال في العراق في ٢٠٠٣م "عند مجيء جنرال بتريوس كان واضحاً أنه ممتلئ نشاطاً وحيوية، وسرعان ما يتزايد الضغط علينا للأهتمام بالتدريب". وأكثر ما يلفت النظر هو أن بتريوس أعاد توجيه تدريب الجيش العراقي. كانت الفكرة الأساسية في تدريب القوات العراقية العائدة للجنرال جورج كيسي هي: انشاء قوة آلية/مدرعة قادرة على ردع ايران ؛ عدو العراق التقليدي. لكن بتريوس رأى أن هناك

عدواً ماثلاً للعيان – أي المقاومة العراقية – لذا ركز بدلاً عن ذلك على انشاء قوة خفيفة قادرة على القتال .

ومع ذلك ارتكز تدريب العراقيين على أساس واهن قياساً بأسس وقواعد التدريب المعتمدة بحجة أن العراقيين لم يصلوا بعد الى درجة تولي دور قيادي في مجابهة المقاومة. وعند وصول باحثي معهد راند الى بغداد نهاية ٢٠٠٤م وجدواً فروقاً كبيرة في أعداد المجندين تصل الى(٦٠ ألفاً) وبين الأعداد التي يعلنها الرسميون الاميركان.

تمرّد يطال الأميركيين والعراقيين

مع بداية عام ٢٠٠٤ تضاءل الأمل بالحكومة المؤقتة الفتية.ففي ايلول/سبتمبر أجرى عراقيون عملية مسح/استبيان دفعت الحكومة الاميركية تكاليفه وجه فيه العراقيون اللوم وبالتساوي على قوات المحتلين بقيادة اميركا وعلى الارهابيين الأجانب. كان السؤال الرئيس للاستبيان هو: لوفكرت بالموقف الصعب في العراق حالياً سواء حول الأمن والأقتصاد أو ظروف العيش فمن هو –برأيك –الملوم الأكبر؟ خص ٣٣% من المشاركين قوات الاحتلال باللوم و٣٢% صبوا اللوم على الارهابيين الأجانب. قال ٤٥%منهم أن الأوضاع في العراق تنحدر باتجاه خاطئ ، وما نسبتهم ٣١% طلبوا تحويل مسؤولية حفظ الامن للعراقيين مع بقاء المحتل الأميركي كأقوى مركز للقوة في العراق.واستشهد معظم من قالوا ينحدر العراق باتجاه [نحو الهاوية] بالوضع الأمني المتدهور.

تشتتت اهتمامات الرأي العام الأميركي بكل اتجاه، ولكن العنف ظل يتزايد صيف وأواخر عام ٢٠٠٤. ودارت معارك ضارية في بعض المدن مرة واثنتين وثلاثا. وخاضت مليشيا الصدر في النجف معارك كبيرة، ولم يحظ ذلك سوى باهتمام عابر للرأي العام الاميركي. قتل ١٤٨جندياً ذلك الصيف أي بزيادة عشرة قتلى عن مجموع ما تكبدته القوات الاميركية حين غزت العراق في ٢٠٠٣م.أفاد العميد ديفيد فاستباند بأن أحدى الفرق الأميركية (فرقة الفرسان/الأولى) خسرت لوحدها ٧٠ دبابة خلال توليها مهاماً قتالية في بغداد طوال عام واحد في بغداد (كان أحد جنود الفرقة الذين تعرضوا لضربات المقاومة العراقية القوية هو ابن الجنرال أوديرنو الذي ضربت عجلته بمقذوف RBG في بغداد في آب/أوغست ٢٠٠٤ فقد معها معظم ذراعه الأيسر) . قال الفريق جون ساتللر قائد المارينز غربي العراق انه وبحلول أيلول/سبتمبر٢٠٠٤ فإن كل عجلة مرت قرب الفلوجة تعرضت لنيران المتمردين. كما ورد في احصائية رسمية أجريت أواخر صيف ٢٠٠٤م أفاد ٧٦%من الجنود الذين شملهم السؤال بتعرضهم لنيران الهاونات أو الصواريخ خلال عملهم في العراق بينما كانت نسبتهم قبل عام واحد ٥٧%فقط .

وبعد أكثر من عام من الاحتلال لم تعد القطعات الاميركية تتفاجأ اذا ما خاضت قتالاً ضارياً. فقد تحول الموقف في العراق الى حرب حقيقية ستدخل مساحة اضافية في الكتب التأريخية عن الحرب بما يفوق وعلى سبيل المثال حرب الخليج الثانية ١٩٩١والتي عدًت انتصاراً كبيراً في حينه والتي تبدو الأن كمجرد قتالات هامشية لحرب طويلة جداً. وفي مايس/مايو ٢٠٠٤ أوقعت حرب العراق حتى

آنذاك خسائر بشرية للاميركان فاقت مجموع خسائرها في الحربين الأمرو-أسبانية عام ١٨١٢م ؛والمكسيكية.

في ٢٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٤ أوقعت المقاومة العراقية جنود رعيل من الحرس الوطني الاميركي في كمين أثناء قيامه بدورية في بعقوبة. كان المقاومون قد سيطروا على مجموعة من المباني الحكومية في مركز المدينة وقتلوا عدداً من رجال الشرطة العراقيين. تولى الملازم الثاني نيل براكاش قيادة مجموعة الأنقاذ. "جاء كابتن فاولير راكضاً بأسرع ما يستطيع قائلاً:حسناً ستذهب كل السرية الى بعقوبة، ولقد أصدرت أوامري بذلك تواً. ثم واصل ذكرياته قائلاً: حوصرت بعقوبة – مركز الشرطة ومركز العمليات العسكرية المدنية المشتركة – فقد هوجمت جميع المراكز في المدينة لذا سنذهب الى هناك. كان ملازم ثاني براكاش في الدبابة الأمامية فوقع في كمين امتد على طول كيلومتر واحد؛ فأصيبت دبابته بسبعة صواريخ RBGوعبوات لاصقة جانبية ونيران رشاشات.طيرت أحدى الضربات منظومة الملاحة من الدبابة ، وضربة حطمت مؤخرة الدبابة ولوت أحد قضبانها الى الأعلى فمنع حركة برج الدبابة من الدوران ما أجبر براكاش على تغيير اتجاه الدبابة بكاملها ليطلق نيرانه على المقاومة.

يوم سقط صدام حسين نال شعب العراق حريته. ولكن ما لم ينله شعب العراق هو الأمن والنظام العام. فقد بدأت عمليات السلب والنهب على الفور،وعند توقفها ظهرت علامات أو بدايات الاستعداد لمقاومة مسلحة. بعد أربعة أشهر من الاحتلال انفجرت أول قنبلة فقتلت أكثر من انسان واحد ، وبعد عامين وخلال

صيف ٢٠٠٥م نفذ الكثير من عمليات القصف والتفجير وبمعدل واحد يومياً. لم تقتصر أهداف التفجير على قطعات اميركية بل شملت حتى سكان العراق المدنيين أيضاً، وأهم من ذلك شملت عناصر عراقية كان يفترض فيها بناء النظام في العراق (رجال الشرطة) . وقع أول هجوم كبير على رجال الشرطة العراقيين في تشرين١/أكتوبر ٢٠٠٣م؛ حين تسببت سيارة مفخخة بقتل (١٠) منهم قرب مركز شرطة عراقي.وفي منتصف ٢٠٠٥م باتت معدلات القتلى بين الجنود و الشرطة العراقيين ١٠ يومياً.

السؤال الكبير

في الحقيقة وكما يوضح المسؤولون الاميركان ينحصر العنف في ٤ محافظات من ١٨. ولكن تلك المحافظات الأربع تضم عاصمة العراق أي أقل قليلاً من نصف سكان العراق.

فالحاجة الماسة الى فرض النظام وتحسين الأمن وضعتا اميركا في وضع مستحيل. فهي لا تستطيع الانسحاب بشرف من العراق واستحالة تنفيذ انسحاب بسيط كما أخلت سايكون [عام ١٩٧٣] مادام قد فرض على قواتها توفير جميع الموارد البشرية ومنظومات الأسلحة والأستخبارات والاستراتيجيات المستخدمة ضد التمرد. ولكنها لا تستطيع مواصلة البقاء والعمل في الاحياء حين أصبح بقاء قواتها عامل ارهاب وتدمير لشعب العراق ونقطة حشد وتركيز لتوحد خصومها في العراق.

كان هناك سؤال يعلو ما سواه عن السياسة الأميركية في العراق وهو: هل تستطيع اميركا تكوين وتطوير قوى الأمن العراقية في الجيش والشرطة لتوفير الأمن والنظام في العراق الجديد.

استندت سياسة أدارة بوش على قاعدة أو مقدمة تفيد بأمكانية أنجاز ذلك العمل – وانجازه في وقت مبكر، وبما يكفي لتخفيف الضغوط التي خلقها الوجود الضخم لها في العراق. تشتمل تلك الضغوط أيضا على الوجود الطويل لقواتها في الخارج (فيما وراء البحار) وتنامي المعارضة السياسية داخل اميركا نفسها بسبب الأعباء الاقتصادية وخسائر الحرب، والاستياء في العراق بسبب بقاء القوات متعددة الجنسيات لأمد غير محدد. وهذا يفسر تكرار الرئيس بوش وكبار مسؤولي أدارته القول "كلما تقدم العراق انسحبنا نحن".وانقسم الرأي العام بين متطرفين متوسعين أو أقصويين Maximalists يريدون تحويل العراق الى [جنة] ديمقراطية ، وتقليصيين (Minimalist) يريدون سحب القوات بأسرع ما يمكن، وفئة ثالثة تقف في الوسط وتطالب بانشاء قوات عسكرية عراقية خاصة وجيدة.

فلو نجحت الولايات المتحدة بخلق وتنمية نظام سياسي كفء ومستقر في العراق، ولو نجحت بتدريب وتجهيز ودعم قوات مسلحة وشرطة للدفاع عن ذلك النظام فستحظى السياسة الأميركية بفرصة للنجاح، و ستتمكن من سحب قواتها من العراق وهي تدرك أنها تركت وراءها شيئا قادرا على الثبات والبقاء. لكن ومالم يتحقق أحد تلك الأهداف، وبات حقيقة وواقعاً ، أي إذا استمر تخبط [العملية] السياسة العراقية وظلت قواته العسكرية دون

مستوى فصائل المتمردين وتعاني ثقل تهديداتهم – فسيعني ذلك أن الاستراتيجية الاميركية ككل فاشلة.

تصرف قادة الاحتلال الأميركي ومنذ البداية وكأن تكامل وتطور القوات العراقية عملية طبيعية. صرح وزير الدفاع دونالد رامسفيلد في تشرين الاول/أكتوبر ٢٠٠٣م بأننا و"خلال الستة أشهر الأولى تقدمنا في أمر تولي العراقيين توفير الأمن لوطنهم من الصفر الى تشكيل قوة تضم ما يقرب من مئة ألف عراقي" ومضيفاً "في الحقيقة كانت العملية سريعة للغاية، وقبل أن يمضي الكثير من الوقت ستتفوق قوات الأمن العراقية عددياً على مثيلتها في اميركا، وبعدها وقبل مرور وقت طويل ستتفوق وعددياً على قوات الاتلاف مجتمعة". ومع نهاية ٢٠٠٥م فاق تعداد قوات الأمن العراقية فعلاً مجموع القوات الأميركية والبريطانية وبعض قوات الائتلاف الأخرى في العراق. إذ بلغ تعداد ضباط الشرطة التابعين لوزارة الداخلية ١٤٥ألفاً اضافة الى ذلك ٨٥ ألف جندي في الجيش العراقي زائداً قوة صغيرة من القوتين البحرية والجوية ويجب أن تكون هذه القوات جاهزة للعمل وتحت سيطرة وزارة الدفاع العراقية. ومنذ أوئل تلك السنة [٢٠٠٣م] خاضت القوات العراقية وفي معظم الحالات معارك الى جانب القطعات الأميركية.

الحقيقة

ولكن معظم التقديرات التي ظهرت في الخارج وبعيداً عن مؤسسات الادارة الأميركية لا تتفق و تقديرات رامسفيلد شديدة التفاؤل. ومرة بعد أخرى ومنذ بدء تدريب القطعات العراقية

توصلت هيئات التفتيش التي أرسلها الكونغرس وديوان المحاسبات الحكومية ومراكز البحثThink Tanks)) ، فضلا عن بعض العسكريين ممن زاروا العراق الى الاستنتاج الاتي: حالة الاستعداد لدى الكثير من الوحدات العراقية متدنية. أما درجة الولاء والمعنويات فمشكوك فيهما. والانقسام العرقي والمناطقي حادان وواضحان كذلك. وما يرد عن أعداد وكفاءة تلك القطعات والأفراد فمبالغ فيهما كثيراً.

العدد وعلى أحسن الافتراضات معيار ناقص ولا يعتمد عليه. وفي مطلع عام ٢٠٠٣ توقف المقر الأميركي المسؤول عن تدريب العراقيين عن الاكتفاء البسيط بعدّ رؤوس منتسبي الوحدات العراقية وعدل الى تقويم حالة الاستعداد استناداً الى معيار تصنيفي من أربعة مستويات:

المستوى الأول: وهو الأعلى لتمييز القوات بـ "قدرات كاملة" أي القادرة على تخطيط وتنفيذ ومواصلة العمليات ضد العصابات دون أية مساعدات مهما كان نوعها. وفي صيف ٢٠٠٤م قال رسميون في البنتاغون أن لدى العراق(١١٥) فوج جيش وشرطة منها (٣) أفواج فقط وصلت هذا المستوى. و في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥ خفض القائد الأميركي الأعلى في العراق جنرال جون كيسي هذا العدد الى فوج واحد فقط.

المستوى الثاني: وهو لتمييز الوحدات "القادرة Capable على مقاتلة المتمردين /العصابات طالما توفر القطعات الاميركية الاسناد العملياتي كـ (الاسناد الجوي الاداري، اللوجستي والاتصالات، وغيرها) . وفي صيف ٢٠٠٤قال جنرال المارينز بيتر

بيس رئيس هيئة رئاسة الأركان المشتركة (الجيرمان) أيامها بأن أقل من ثلث وحدات الجيش العراق فقط وصلت هذا المستوى. وحققت وحدات قليلة أخرى هذا المستوى الثاني في نهاية العام.

المستوى الثالث: وهو للوحدات بـ "قدرات جزئية" وتشمل تلك القادرة على تأمين عناصر بشرية اضافية للجهد المخطط له، يقاد ويُمون ويجهز من قبل الأميركان. ويعد باقي ثلثي وحدات الجيش العراقي ونصف وحدات الشرطة من هذا المستوى.

المستوى الرابع: الوحدات العاجزة عن المشاركة أو تقديم أية مساعدة ومهما كانت في مقاتلة المتمردين. وضع نصف وحدات الشرطة بهذا المستوى.

الخلاصة لو اختفت القوات الأميركية غداً فلن يتبقى للعراق من حيث الأساس قوات أمنية مستقلة. فنصف قوات الشرطة لا قيمة له ويعتمد النصف الأخر على الدعم الخارجي تنظيمياً وتوجيهياً وللاسناد.وكان ثلثا الجيش يعتمد على مصادر الدعم الخارجي تلك، بل وحتى ثلث الجيش الآخر جيد الأعداد سيعاني الكثير من العوز والتهديدات والتحديدات دون دعم خارجي.

إن اللحظة التى سيرفع فيها العراقيون العبء عن كاهل القطعات الأميركية لا تلوح في الأفق.ولكي نفهم مدى وامكانية تحسن تلك المواقف فلابد أولاً من تفهم طبيعة المشاكل القائمة حتى الأن.

تحسن التدريب

خلال صيف وأواخر عام ٢٠٠٥؛سألت كثيراً من الناس عن حقيقة عدم أمتلاك العراق لجيش وماهية الحقائق التي ستتوقعها الولايات المتحدة فعلياً في المستقبل.كان معظم من سألت من الأميركان، ولكني سألت كذلك خبراء عراقيين وبريطانيين واسرائيليين وفرنسيين ومن أقطار أخرى.لقد خدم معظم من سألت في مهام عسكرية سابقاً، وعين عدد كبير منهم مؤخراً لتولي مهام عسكرية فعلية في العراق كما قاتل الكثير منهم في فيتنام. أصر معظم المستمرين في الخدمة على عدم ذكر أسمائهم.ورتب لي المكتب الصحفي للجيش لأتحدث الى الفريق ديفيد بتريوس الذي أنهى للتو عامه الأول كقائد للمهام التدريبية في العراق قبيل استبداله بجنرال آخر من الجيش هو اللواء مارتن ديمبسي.ولكنهم رفضوا السماح بمقابلة الجنرال بول أيتون أو غيرهم ممن شاركوا في برامج التدريب خلال الشهور الأول من الاحتلال أو مع صغار الرتب من الضباط وضباط الصف الذين رغب كثيرون منهم على أية حال بالتحدث معي أو الكتابة الي.

وما سمعته يرقى الى ما ياتي: توصلت الولايات المتحدة الى مقترب أفضل لتدريب القطعات العراقية. وفي أوائل ٢٠٠٥م بدأت بضخ المزيد من الأموال ومزيد من أفضل عناصرها لمهام التدريب المطروحة فكانت النتيجة هي: زيادة في عدد الوحدات الكفء في العمليات وفشل وتفكك وهرب قليل من الوحدات. في عام ٢٠٠٤ وأبان معارك المقاومة الكبرى في الفلوجة والموصل ومناطق أخرى فإن نسبة كبيرة من الجنود والشرطة العراقيين ممن كان يفترض

خوضهم القتال الى جانب القوات الاميركية فروا من الميدان حال بدء القتال. لكن ومنذ انتخابات كانون الثاني /يناير٢٠٠٥م وكما أخبرني جنرال بتريوس "لم تتفتت أية وحدة عراقية كما لم تسجل حالة هروب واحدة من مراكز الشرطة". وواصل طالبو التجنيد من العراقيين مراجعة مراكز التطوع للجيش والشرطة رغم أن الخدمة في هاتين القوتين باتت أشد خطورة.

مشاكل جديدة

لكن ومع تحسن التدريب وتزايد أعداد [المتطوعين] تصاعدت من جهة أخرى المشاكل التي تسببها المقاومة العراقية – بل وتفاقم هذا التردي بسرع وبنسب فاقت نسب ومعدلات التحسن في القوات العراقية. ولو قسنا الحال بمعيار: ما المطلوب كي يتولى العراقيون المسؤولية الأمنية الكاملة في بلادهم فستخسر اميركا والحكومة العراقية الرهان في الظروف الحالية. فبدون تحولات دراماتيكية وجذرية في أنشطة المقاومة وفي الجهد الأميركي، وحل الخلافات السياسية في العراق ، فستتدنى خيارات اميركا للأسوأ. و اليكم جرعة عما يثير القلق:

" لن يسمح الموقف الحالي أبداً بانشاء قوات أمنية عراقية" هذا ما كتبه لي ضابط شاب من سلاح المارينز ولم يسمح لي بذكر اسمه في بريد الكتروني بعد عودته من العراق هذا الصيف ، قال ايضا "نحن وبكل بساطة لا نملك مايكفي من الناس لتدريب القطعات العراقية. ولو نقلنا بعض العناصر من القوات المقاتلة الأمنية الى مهام التدريب فسنزود القوات الأمنية العراقية بمزيد من

المجندين الجدد في موقف تتفاقم فيه الأحوال من سيئ الى أشد سوءا".

عبرت أعداد متزايدة من ضباط وعساكر الجيش الاميركي الذين عادوا من المنطقة عن قلقها من أن الجيش العراقي الوليد سيتفتت لو انسحبت القوات في المستقبل المنظور- قالت أيلين كروسمان ممثلة احدى شبكات الأنباء جيدة الصلات داخل البنتاغون في أيلول/سبتمبر. كما أخبرني أحمد.أس.هاشم في رسالة الكترونية بأن "الطاقم الاميركي التدريبي بذل جهداً بطولياً وحقق بعض النجاحات مع بعض الوحدات" مضيفا "ولكن القوات العراقية تشبه ثقبا فضائيا أسود. فأنت تضع الكثير ولكن لا تحصل الا على القليل".

وأرسل أحد المدنيين من بغداد رسالة هو الآخر قال فيها "علي اخبارك بأن الفساد يقرض هذا الجهد المبذول في التصدي/ للمتمردين". وكان المال المخصص لتدريب عناصر جديدة يتسرب الى المتمردين ، مؤكداً بأن "الضباط العراقيين الذين يعرفون بذلك عاجزون عن ايقافه بسبب فساد وارتشاء الوزراء ومساعديهم."

قال لي ضابط أميركي برتبة مقدم يخدم أيامها في العراق مفضلاً عدم ذكر اسمه: "في الموقف و المسارين الحاضرين أمامنا خياران ، الأول أن نخسر ويندحر جيشنا، والثاني أن نخسر فقط " وواصل الحديث قائلاً: بأن كلا الخيارين غير مقبولين، الأمر الذي يؤكد - و حسب اعتقاده - الحاجة الملحة لتغيير سريع. وقصد بـ "اندحار جيشنا" أن اميركا كما بعد حربها في كوريا وفيتنام ستحتاج

لسنوات للتخلص من الضغوط والمعاناة في:العنصر البشري والمعدات ، وأهم من كل ذلك بعد معنويات ومعاناة من بقوا في العراق. وما من شك بأن جنرال الجيش المتقاعد باري ماكفّراي تذكر تلك المخاطر عند تحدثه لمجلة تايمزأوائل ٢٠٠٥ قائلا أن "جيش U.S سيفقد توازنه في الـ ٢٤ شهراً القادمة" لو بقي في العراق". والـ (خسارة (Losing في العراق تعني: الفشل بدحر المقاومة العنيفة ، ويعني استمرار التمرد. وبنظر محدثي المقدم عاجلاً أو آجلاً يتشظى العراق ويتعرض لحرب أهلية دامية ما سيؤدي وبالمقابل الى نظام يكون أشد عداءً من الناحية العملية لأميركا مما كان عليه صدام حسين بكثير. كما قد تتحول في العقد القادم الى ما تمثله طالبان في تسعينيات القرن الماضي في أفغانستان، أي حاضنة وملاذا للقاعدة ومن معها من ارهابيين". "في فيتنام خسرنا فقط" يواصل المقدم الأميركي قائلاً "أما في العراق فالخسارة ستؤدي الى ما بعدها [اي كوارث الشرق الأوسط اللاحقة وهو احتمال ما زال قائماً ولكن وفق مخططات معدة باتقان].

أما قصة تطور الأحداث في العراق وكيف سارت أو كيف خطط لها فلن تعرف أو تتضح تفاصيلها الا بعد سنوات. لكن استناداً الى ما بات معروفاً حتى الآن فإن الوضع البائس والكئيب اليوم هو صورة ما تجمع في الأعمال الثلاثة الأولى من تراجيديا سنوات الاحتلال الثلاث الأولى.

كان العمل الأول :Act ورطة تجاهل الحقائق والوهم.وسيحتاج الأميركان والعراقيون الى سنوات للاستفاقة من اثار قرارات أتخذت

[ونفُّذت] و قرارات أخرى أهملت أو لم تتخذ قبل وبعد انطلاق التمرد، وخلال عام الاحتلال الأول.

العمل الثاني: ويشمل ما بين المقترب (النهج) التجريبي والتحدي القوي والتردي البالغ السوء و السريع خلال العام الثاني للاحتلال. ونعيش الآن (٢٠٠٦م) مرحلة العمل الثالث: حيث بدأ الأميركان والعراقيون بإصلاح أخطائهم الأولى ولكن ببطء وبعد فوات الآوان.

أما عن العمل الرابع : فيجب أن تزال فيه ومن خلاله جميع الضغوط والتوترات التي خلقت في الأعمال الثلاثة السابقة.

"كان من المعروف جداً ما الذي سيحدث في مجتمع محكوم بنظام عسكري متسلط بقوة حال سقوطه" قال أنتوني كروسمان من مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن والذي أعد سلسلة من التقارير المحكمة الاعداد عن المؤسسة العسكرية العر اقية الجديدة والمتيسرة على موقع المركز المذكورCSIS Web site ، ومضيفاً "اختارت اميركا تجاهل تلك الاشارات بكل عناد."

ولإيضاح الفشل والتخبطات الأولى ركز كروسمان على العوامل المشتركة والتي باتت مألوفة وهي:

- التوقع اللامعقول باطالة فترة ترحيب العراقيين بالقوات الأجنبية.
- التمسك بقوة بقرار خفض أعداد جيش الغزو.
- قلة الاستعدادات لتعقيدات مرحلة ما بعد الحرب وغيرها.

خمس سنوات ضاعت

نشر صدام حسين قبل الغزو نصف مليون جندي وشرطي على الأقل لكبح وضبط الأوضاع في العراق. بينما غزاه ثلث ذلك العدد، ولجهل جميع قوات الغزو تقريباً التحدث بالعربية لم يدركوا الا نادراً أية تحولات في المزاج العراقي أو كيفية احداث أية تأثيرات فيهم خارج نطاق القوة والعنف.

كما قادت تفسيرات أولى مشكلات التدريب الى توجهات ونهايات غير مألوفة. وقد تبنى احدى وجهات النظر عن سبب تردي الأمور سريعاً كل من أحمد الجلبي زعيم المؤتمر الوطني العراقي ومناصرو الحرب من بعض الأميركان المتنفذين مثل رئيس CIA السابق جيمس ووسلي ، وريشارد بيرل الرئيس السابق لمجلس السياسة الدفاعية [في البنتاغون]. وقد قال لي جيمس ووسلي "وجهة نظري صريحة للغاية"، ومتابعاً " لقد ضيعنا خمس سنين بفضل الخارجية الأميركية و - CIA" ويقصد السنوات من ١٩٩٨ حين وافق الكونغرس ووقع الرئيس كلنتون على قانون تحرير العراق الذي يدعم تغيير النظام العراقي والى عام ٢٠٠٣م حين دخلت القوات الاميركية بغداد. وفر القانون آنف الذكر مبلغ ٩٧ مليون دولار لتسليح وتدريب قوات من مهاجرين عراقيين.ويتابع وليم ووسلي القول "ما كنا نحتاجه هو استخدام بعض تلك الأموال لتدريب وحدات كردية وشيعية لتقاتل معنا كما فعلت قوات فرنسا الحرة عام ١٩٤٤م". وأضاف وليم ووسلي بأن الحجة الرئيسة المضادة هي أن جيشاً غازيا من كرد وشيعة سيجعل التعامل مع السنة بعد سقوط صدام أكثر صعوبة.

هناك وجهة نظر أخرى تمسك بها وبشدة أخرون من مؤيدي الحرب الأوائل ضمن ادارة بوش.و بعض هؤلاء الأعضاء السابقين في ادارة بوش أبلغوني خلال مناقشاتي لهم بأنهم مستاؤون حقاً بسبب فشل استخباري واحد فقط. وهم ليسوا قلقين ولا مهتمين بخصوص خزين "أسلحة الدمار الشامل" في العراق بالذات. فوكالات استخبارات العالم الأخرى تقع في أخطاء أيضاً. قال لي من ناقشتهم بأن صدام واصل على أية حال محاولاته لبناء أسلحة

الدمار الشامل. ولكن ما يقلقهم هو عدم ادراكهم مسبقاً بأن صدام خطط وطوال الوقت لحل أو تذويب جيشه أي أن تختفي وتتفكك قواته حال سيطرة الأميركان على بغداد ليعودوا من جديد كقوة عصابات. كانت الحرب على صدام وفق وجهة النظر هذه لها عواقب وخيمة ومستمرة ،أما القوات العراقية الجديدة فتتطور بأسرع أو أبطأ ما يمكن وبقدر ما يستطيع أي كان أن يتصور.

ولكن وجهة النظر التي قبلت عموماً بين العسكريين هي: أن مخططي الحرب من عسكريين ومدنيين قبلوا ودون نقاش بأن تحولات ما بعد الحرب مسائل بديهية، ثم وفجأة اتخذوا قراراً كارثياً بحل وصرف جميع عناصر الجيش العراقي، ثم إنشغلوا بأمور طارئة وملحة أخرى وحتى تقليدية وروتينية للتفكير بجدية حول [تشكيل] جيش عراقي جديد.

تساءل الفريق جيم ماتيس الذي قاد فرقة المارينز الأولى في الهجوم على العراق " لو أعددنا زمر تدريب، وكانت جاهزة لدخول العراق نفس يوم اجتيازنا حدوده ". (تقرر أن يمثل دوره في فيلم عن معركة الفلوجة) ، ومتابعاً "للعسكريين بطبيعة الحال واجب واحد في موقف كهذا وهو توفير الأمن للسكان المحليين. إنها الستار والحجة التي يمكن أن يجري ويحدث خلفها وباسمها أي شيء. لقد حاجج الجنرال ماتيس قبيل الحرب بضرورة تهيئة مجموعات استشارية مدنية وحاضرة لتتدفق داخل العراق كـ: رؤساء اداريين Mayorsمن أميركا الشمالية وأوربا للعمل سوية مع أقرانهم العراقيين، وقادة شرطة مع أمثالهم ،على أن يسعى الجميع لهدف

واحد هو: تهيئة كوادر مدنية لتأمين النظام والانضباط. "ولكنا لم نفعل ذلك فكان أقسى ما عملنا جميعاً هو فقدان الأمن."

خطة كارنر

اقترح العديدون حذف الكثير مما ورد في الاستعدادات للحرب.ولكن أمراً واحداً على الأقل من بين خطوات التحول لم يعط ما يستحق من الاهتمام وهو: كيفية التعامل مع القوات المسلحة العراقية حال استسلامها أو اندحارها. ولسوء الحظ تجاهلوا هذا الأمر أو تعذر تنفيذه.

بعد سوء استخدام صدام حسين للجيش العراقي لسنوات عانى هذا الجيش مشكلات كبيرة، كانهيار المعنويات وتفشي الفساد، معدات قديمة وبالية، قسوة ووحشية. لكن بلغ تعداد الجيش النظامي ٤٠٠ألف جندي، فلو استخدمت أية نسبة منه لخفف ذلك عن الأميركان.

خول الكونغرس أواخر عام ٢٠٠٢م بوش بالحرب اذا اقتضت الضرورة ذلك ، وبدأ جنرال الجيش المتقاعد جي كارنر التفكير بكيفية استخدام أعداد من الجنود العراقيين اذا اندلعت الحرب ليغدو أول نائب –ملك Viceroy أميركي في العراق. كان كارنر هذا قد أشرف على المنطقة الكردية بعد حرب الخليج (١٩٩٠-١) فطالب بدمج أكبر عدد ممكن من ضباط صف وجنود الجيش العراقي مع قوات الاحتلال.الا أن اقصاء جميع عناصر القيادة [أي جميع الضباط العراقيين] مسألة أكثر تعقيداً مما كان عليه الحال في حالات سابقة كما جرى مع اليابانيين والألمان بعد الحرب

العالمية الثانية. ففي العراق يوجد أكثر من ١٠آلاف جنرال ! (تمتلك اميركا نفس أعداد القوات المسلحة العراقية لكن مع ٣٠٠ جنرال) .ألا أن ضابطاً كبيراً ممن ساهموا بقوة في اعداد الخطط أخبرني بـ "الفكرة الأكثر تقبلاً هي ابقاء القطعات العراقية في مواقعها السابقة ثم محاولة اشراكهم لانجاز الأشغال العامة واعادة البناء لا العكس كالتخلي عنهم نهائياً". وتابع الضابط الكبير قائلاً: "أما مزايا استخدامه فهي أنهم منظمون ولديهم أجهزة و معدات وعلى الأخص وسائط [عجلات صغيرة كالجيب (واز) والشاحنات] التي تمكنهم من التنقل من مكان الى أخر.و لديهم منشآت جاهزة. ولكن كل هذه المزايا تتلاشى أمام محاذير ابقائهم". حاول جنرال كارنر تفعيل خطة الاستفادة من عناصر الجيش العراقي حال وصوله بغداد في أبريل/نيسان ٢٠٠٣م. ولقد أخبرني مؤخراً أنه لم يجد سوى اشارات ودلائل قليلة عن الجيش العراقي القديم عند وصوله، وتابع، لكننا بدأنا بعمليات جس نبض وارسلنا بعضهم لهذا الغرض ثم تلقينا الكثير من الاستجابات.وعثرنا على ضابطين قالا لي "بوسعنا اعادة تلك الفرقة.ثم بدأنا بحوارات ومناقشات."

قرار حل الجيش العراقي

ثم وفي ٢٣مايس/أيار جاءنا القرار الذي سيظل يثير الكثير من الجدل لسنوات وهو: قرار سلطة الائتلاف الرقم -٢ بحل الجيش العراقي وارسال جميع منتسبيه وبكل بساطة الى بيوتهم دون صرف أية مستحقات مالية.

إن (والتر سلوكومب) هو من يتحمل جريرة فكرة حل الجيش صيف ذلك العام. كان هذا أبان عهد كلينتون بمنصب وكيل وزير البنتاغون للسياسة وهو المنصب الذي شغله فيما بعد دوكلاس فيث. [أحد قادة اليمين الجديد وعرابي الحرب على العراق - المترجم]. ثم وبعد شهر من سقوط بغداد ذهب سلوكومب هذا الى المنطقة الخضراء كمستشار أمني لبول بريمر الذي حل للتو مكان جنرال جي كارنر ؛كأعلى موظف مدني اميركي.

لقد تبنى (والتر سلوكومب) عند وصوله بغداد فكرة أن على سلطة الائتلاف مواجهة الواقع والاقرار بأن الجيش العراقي قد اختفى (أو حلّ نفسه) . وقال: لا وجود فعلي لأية قوة عراقية لـ "حلها"، ومتابعاً "وما من طريقة عملية أفضل ولا أسرع لتفكيك أية قوة، فقد دمرت جميع معدات ومؤسسات الجيش وذهب المجندون الى بيوتهم ولم يعودوا". لقد وافق رسميو ادارة بوش الذين أمروا الجنرال كارنر أولاً على اعادة تشكيل الجيش ولكنهم وفي النهاية وافقوا سلوكومب على فكرته: الجوانب السلبية وما شاب سمعة القوات المسلحة من فساد ووحشية كانت حية بعد كما لم تبق من محاسن ومزايا لها. وتابع المسؤول الكبير في وضع وتصميم الخطط القول "فضاعت بالتالي جميع المزايا والحسنات ، الجنود، التشكيلات، الانضباط ،وسائل النقل العسكرية."

آراء بشأن حل الجيش

تظل المناقشة حول ذلك القرار مريرة ولكنها تتركز كما يدعي سلوكومب حول نقطتين: قرار الحل نفسه وفيما اذا استطاع

المسؤولون الأميركان العثور على طريقة لتجنب تحول مئات الألوف من الجنود الى مجموعات (فصائل) مقاومة مسلحة وحاقدة.وقال لي باراك سالموني من وحدة تدريب وتثقيف المارينز "دعني أؤكد لك بأنه كان يمكن الوصول الى ترضية أو حل ما وتفعيله لو قدمواعروضاً بالدولار.فحتى لو اردنا حل الجيش فقد كان بوسعنا الا ندفعهم الى معاداتنا" - لأننا وبشكل خاص أوقفنا مخصصاتهم. وبعد أسابيع من ذلك أعلن الأميركان عزمهم اعادة صرف بعض المعاشات والاعانات ولكن جاء ذلك متأخراً وبعد فوات الآوان وبعد وقوع المحذور.

لقد فوجئ الجنرال كارنر بالقرار ؛وقد أوضح رأيه وبصراحة بأنه قرار خاطئ.ولقد سألته عما يتكرر تداوله عن عدم وجود مواقع ومعسكرات لايواء القطعات العراقية بعد تدمير ونهب الثكنات و المعسكرات فقال ”كان بوسعنا إسكانهم في عنابر وقاعات [وخيم] كما كانت قطعاتنا نفسها ."

أما أشد الانتقادات للدمار الذي سببه القرار فقد جاء من (بول هوجس) وكان أيامها عقيداً في الجيش ويعمل ضمن أركان جنرال كارنر. ويتذكر عقيد هوجس هذا "أن أحداً لم يستشر جنرال كارنر أو يستشره هو نفسه عن الحكمة وراء قرار حل الجيش". كان العقيد هوجس الوحيد من ادارة الجنرال كارنر الذي تحدث مع بعض عناص الجيش العراقي حول شروط وظروف اعادتهم الى الخدمة.وفي يوم صدور قرار الحل كان أكثر من ١٠٠ألف جندي عراقي قد سلموا طلبات عودتهم مقابل اعانة طوارئ شهرية قدرها ٢٠$ أميركي تصرف لهم من حسابات صدام.

يؤكد عقيد هوجس أنه "لم يكن ينوي اعادة تفعيل أو تأهيل الجيش العراقي" ومتابعاً "وكلما سألني ضباط عراقيون إن كانوا يستطيعون اعادة تنظيم وحداتهم كنت صريحاً ومباشراً معهم وأنهم إن فعلوا ذلك فستهاجم تلك الوحدات وتدمر. فما أردناه وعلى وجه الدقة هي عملية تسجيل الـ ١٠٠ألف جندي تحت سيطرة سلطة الائتلاف وأخبارنا بما يعرفونه وتسلم مخصصاتهم ثم الالتحاق بالمواقع التي سيخصصون لها.الا أن قرار الحل الرقم -٢ أوقف كل تحرك الى الأمام وكأن لم يكن للقوات العراقية من وجود.ومازال قرار (والتر سلوكومب) بصرف ٢٠$ [لكل مجند/عامل] يرن في راسي فـ "نحن لا ندفع للجيوش [المعادية] بل ندحرها". لقد أبلغني أصدقائي من العراقيين أن قرار حل الجيش هذا هو الذي أثار الحماس الوطني للالتحاق بصفوف المقاومة الوليدة.فقد بدأنا بالاعلان عن أنفسنا كمحررين ثم تحولنا في تعاملنا مع هذا الشعب الى أقل مايقال فيه أنه قوة او شيء أخر [غازٍ ومحتل]."

التناقض الكبير

ستستمر المناقشات طويلاً. لكن حول ما حدث بعد ذلك لا يختلف فيه اثنان.فبعد أن قضينا على قوى الأمن العراقية لم نيسر سوى قوات احتلال أقل حتى مما كان لدينا في عمليات احتلال سابقة في البلقان والمانيا واليابان وكلها تؤكد الحاجة الى حجم أكبر من القوات لبلاد بهذه السعة. أضاع الأميركان الأشهر الـ٦ الأولى، وحين بدؤوا التفكير بجدية باعادة تشكيل القوات المسلحة والشرطة

كانت المقاومة العراقية قد تجاوزت مراحل العمل الأولى، كما تزايدت وخامة تحديات تهدئة الأوضاع المتفجرة في العراق.

لم نجد ولا تفسيرا واحدا وشاملا لتحديد مواطن الخطأ. فبعد التوتر الذي قاد الى الحرب أولاً والى تحقيق نصر لامع وسريع على المستوى السياسي الأمر الذي دفع بالقادة العسكريين الذين كانوا معنيين بالغزو الى تقليل اهتمامهم أو على الأقل فتر حماسهم بعد ما حققوا غاياتهم. قال فيكتور أوريللي الذي نشر الكثير من الكتابات عن العسكريين الاميركيين:" فحال سقوط بغداد ابعد الجنرالات ممن تحدثت معهم هذا الرأي حتى الجنرال توم فرانكس الذي شغل منصب قائد القيادة المركزية إبان الحرب وقاد غزو العراق. لم يوافق الجنرال فرانكس هذا على لقائي به ولم يرد حتى على رسائلي التي بعثتها على بريده الألكتروني التي أرسلتها الى موقعه الذي خصصه لمراسلاته التجارية. وعلى العكس سنجد أن أبرز مظاهر أو ما بعد الحرب و طوال الأشهر الستة الأولى هي الفوضى العارمة وعمليات النهب المروعة التي عمت العراق. لقد أتعست عمليات هذه الحياة اليومية العادية ولاسيما في بغداد وجعلت عمليات استعادة الأمن أو فرض الضبط أمراً مستحيلاً على القوات الاميركية أو على القوات العراقية التي ستتولى ذلك. ومن ناحية أخرى تجاهل القادة السياسيون والعسكريون تلك المآسي ولم يعدوها شيئاً عاجلاً وخطراً وجب ملاحظتها ، ولم تتدخل القوات الاميركية لوقفها الا بعد اسابيع.

التمرد (المقاومة)

في يونيو/حزيران ٢٠٠٣؛وبعد توقف أو زوال عمليات النهب ظهرت أول بوادر التمرد، فأرسل مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن CSIS مجموعة من الخبراء الذين سبق لهم العمل في حالات احتلال سابقة. لقد أرعبهم ما شاهدوه، وذكروا في أحد تقاريرهم "هناك احساس عام بالتردي المتواصل والسريع نحو الأسوأ في الموقف الأمني في بغداد والموصل وفي كل مكان آخر في العراق". ثم يؤكد التقرير: "عملياً وبالمعنى الحرفي للكلمة أكد جميع من تحدثنا اليهم من عراقيين ومعظم من التقينا من رجال ونساء السلطة الوقتية CPA ورسمي سلطة الائتلاف من مدنيين وعسكريين، كذلك معظم من تحدثنا معهم من المقاولين الأجانب.. أكدوا لنا جميعا بأن فقدان الأمن العام كان هاجسهم الأول. وقد لاحظت زمرة المراقبين تلك أن حوالي خمسة آلاف من القطعات الأميركية قد عطلت عن العمل وكلفت بحراسة بعض المباني في بغداد وحوالي فوجين ونصف أخر أي أكثر من ألف جندي آخرين لحراسة المقرات الأميركية فقط.

قال أنثوني كروسمان من CSIS بعدم وجود قرار واضح ومؤكد عن تأخير أو تجاهل التدريب ، بل وعلى العكس فقد بدا وطوال الأشهر الأولى للاحتلال أن هناك قضايا وأهدافا أخرى أكثر الحاحاً أو أهمية تشغلهم. خلال الأشهر الستة الأولى كان اعتقال صدام حسين هو الخطوة الأكثر أهمية لإنهاء المقاومة. وقد قتل ولداه عدي وقصي في تموز/٢٠٠٣ واعتقل هو بعدهما في كانون الاول ومع ذلك تواصلت وتزايدت المقاومة. واستمرت طوال ذلك

عمليات اعتقال وحجز الناس أفراداً ومجموعات والتحقيق معهم وباساليب وحشية كتحطيم ابواب دور المشتبه بهم وتحطيم وبعثرة مقتنياتهم الأمر الذي عزز وضاعف كراهية العراقيين للوجود الأميركي. لقد أخبرني فيكتور أوريللي بأن "عمليات البحث عن واعتقال صدام حسين قد فرضت نفسها على كل شيء غيره" ثم متابعاً "أعتقد شخصياً أن التمرد كان ثمرة أو نتيجة اجراءات المحتل وأساليبه التي مارسها خلال البحث عن صدام حسين. ولا ننس أن الجنرالات الطموحين قد أشاعوا نهجاً يعتمد على قاعدة بسيطة هي:إفعل ما تراه ضرورياً.وليس من المستغرب أن يرتكب [الضباط وضباط الصف والجنود]المرتبكون وممن لا يحسنون لغة العراقيين والحيارى بفهم ما يجري الكثير من الأخطاء. وفي مجتمع عشائري حين تطلق الرصاص على شخص واحد فإن الحدث سينتشر كالهشيم بين العشائر."

أما البحث عن أسلحة الدمار الشامل ؛فقد تولته نفس القطعات التي تولت البحث عن صدام حسين وعديمة أو قليلة الخبرات والعاجزة هي الأخرى عن تفهم ما يجري حولها والتي انتهت الى نفس النتائج الخائبة.أما المستويات الدنيا من الجنود والمارينز الذين قابلتهم فقد أكدوا وبشكل متواصل المصاعب التي سببها عجزهم اللغوي.ولقلة أعداد ما لديهم من مترجمين فقد اضطروا للاعتماد على حدسهم في تفهم مالديهم من أوامر وتوجيهات وعلى الاشارات ولغة الجسد.وكانت النتيجة المحتومة هي أن الجنود كانوا صماً وعميا لمعظم ماكان يجري حولهم مما حير العراقيين معظم الوقت.

مخاوف ومشكلات

أكد جنرال ماتيس لجنوده مراراً وتكراراً بعدم اخافة السكان المدنيين كي لا يحولهم الى أعداء. وقد أخبرني هذا الجنرال "بدلاً من التركيز على الأمن حاولنا الحصول على جلب أنابيب النفط واعادة تشغيل محطات الطاقة الكهربائية والبحث عمن نثق بهم من المهندسين مادام بعضهم يكرهنا بقوة حد القيام بأعمال تخريب، الأمر سيستغرق الكثير من الوقت."

وحيثما فكر الأميركان بالجيش العراقي الجديد غالباً يبدؤون بالتحدث عن مخاوفهم كأن يغدو جيشاً قوياً جداً وسريعاً. قال تي.أكس.هامزز مؤلف كتاب (The Sling & the Stone) الرافعة والصخرة ؛ والذي كان أيامها عقيد مارينز "يفترض الجميع ان السلام سيسود في العراق" ومتابعاً "لذا كان الاهتمام الأكبر هو التأكيد لجميع جيران العراق بأن العراق لن يشكل تهديداً لأحد. واحدى طرق تحقيق ذلك هي:بانشاء [وحدات] مشاة آلي دون منظومة اسناد اداري (لوجستي) " ويعني هذا جيشاً عاجزا عن شن أية عمليات تعرضية واسعة النطاق. وجيش كهذا قد يبعث الطمأنينة في سوريا وايران لكنه لن يوفر ما يكفي الأمن الداخلي، كما لن يكون مستعداً ولا جاهزاً لتنفيذ عمليات مكافحة التمرد داخلياً.

كان تدريب الشرطة تحدياً لا يقل حجماً وتأثيراً عن تدريب الجيش. قال جنرال ماتيس "لا يمكن تصور وجود قوة شرطة غير فاسدة في كل العراق". ولتعقيد الأمر أكثر وليزداد سوءا فإن جهود

التدريب بدأت حين كانت مراكز الشرطة عرضة لهجمات فصائل (المقاومة) ومدافعها وقاذفاتها. وقد قال لي معظم من تحدثت اليهم تقريباً من عسكريين ومدنيين أن المبادرات الرسمية وغير الرسمية بين العسكريين جعلت تدريب القوات العراقية كعمل من الدرجة الثانية .

لكن كان هناك استثناء، فقد واصل منتسبو البيريات الخضر والقوات الخاصة المعروفة بقدراتها المذهلة على تحويل أبسط العناصر وحتى الدهماء في الجيوش الأجنبية الى وحدات مقاتلين أشداء، ولكن لم يتيسر ما يكفي من وحدات القوات الخاصة لتنفيذ مهامها تلك ، كما لم يكن المتيسرون من عناصر الجيش والمارينز بنفس الحماس والاخلاص فيما يخص تدريب المكلفين الذين جاؤوا للخدمة في الجيش العراقي. وعلى الأخص يجب ألا ننس أن مهام التدريب في البداية أنيطت باناس عاجزين عن اتقان موضوعات وفنون القتال وكان معظمهم من عناصر احتياط الحرس الوطني.

كانت الولايات المتحدة قد خسرت في اواخر ٢٠٠٣م الوقت كما غيرت هيئتها من محرر الى محتل. ولكن الادارة الأميركية قد أقرت في بياناتها الرسمية وتوجيهاتها الداخلية بأنها تواجه الأن مقاومة أصيلة – مقاومة يمكن أن تتزايد في قوتها – ولا تواجه بقايا النظام القديم الذين ستتضاءل قوتهم تلقائيا بعد اعتقال قادتهم وقتلهم. في ١٦ يونيو/حزيران كان الجنرال أبي زيد الذي تسلم قيادة المنطقة المركزية من جنرال تومي فرانكس أول مسؤول أميركي كبير أقر بأن قواته تواجه الآن عمليات "حرب عصابات". وبعد يومين وفي افادة له أمام الكونغرس بدا وكأن بول وولفتز وكيل وزير الدفاع يقر مصطلح الجنرال أبي زيد فقال "تنشب هناك الآن حرب عصابات ولكنا..سنربحها". وفي ٣٠ حزيران صحح رامسفيلد قولهما: "ما يجري هناك لا يشبه ولا ينطبق عليه توصيف حرب عصابات أو مقاومة منظمة" بعد يومين من ذلك صرح الرئيس بوش في خطابه في البيت الأبيض قائلاً أن بعض الناس يشعرون بأن الظروف في العراق "توحي بأنهم قادرون على مهاجمتنا هناك. وجوابي لهم: إذاً أسكتوهم". الا أن المقاومة كانت تزداد[حدة] ومن سيئ الى أسوأ.

قضية التدريب

سرعان ما ارتفعت مسألة تدريب القوات العراقية على الأوليات. كما أرسل جنرال الجيش كارل أيكنبيري الى العراق فهو الذي تولى تدريب القوات الأفغانية بعد سقوط نظام طالبان ليحدد مواضع الخطل. تزايد تكرار منظمي الاجازات في البنتاغون الأشارة الى الجهود المبذولة لانشاء جيش عراقي جديد. وفي بداية عام ٢٠٠٤/كانت ادارة بوش قد اقرت انفاق المزيد من الأموال على

تدريب القطعات ولجعل العملية برمتها جزءا من مهام الجيش الاميركي في العراق.عند ذلك فقط فرضت الحقيقة نفسها وظهر مدى صعوبة هذا العمل.

أبلغني أحد موظفي الكونغرس ممن سبق لهم السفر كثيراً الى أفغانستان بعد ٩/١١ بأن "التدريب لا يعني فقط كيف تطلق نيران مسدس أو مدفع" ثم متابعاً "ذلك يمثل جزءا من التدريب فقط ". وفي الحقيقة فإن التعود على استخدام السلاح واستعماله يشكلان شيئاً أساسياً في الأماكن التي يتفوق فيها العراقيون على الأميركان عدديا. حاولت سلطة CPA فرض قانون يمنع استخدام السلاح والسماح ببندقية كلاشينكوف AK-٤٧ واحدة لكل بيت بوجه قناعات عامة بضرورة الاحتفاظ ببندقيتين واحدة للبيت وأخرى في الترحال.

أكد لي جميع من سألتهم أن ما جرى ليس تدريباً على تعلم مهارات خاصة بل لا يزيد عن العبث السخيف وتمضية وقت. فالهدف الحقيقي لتحويل الرجال المدنيين الى جنود تبدأ من الفرد الواحد الى تدريب زمرة صغيرة يتبادل أفرادها ثقة متبادلة حتى الموت ، ثم الى تشكيل وحدات مختلطة تعمل بتنسيق وانسجام وليس بشكل قد يؤدي بهم تبادل اطلاق النار على بعضهم البعض، والى مستوى أعلى يتبلور أو يتحقق فيه مفهوم قوة عسكرية أو بوليس تختلف تماماً عن زمر وعصابات الارهاب.

التحديات

قال جنرال جي كارنر أن "القسم السهل هو التدريب الفردي". ثم متابعاً "أما القسم الصعب فهو التدريب الجماعي الاجمالي CollectiveTraining. حتى لو أنجزت كل ذلك جيداً يظل العمل الأصعب فعلاً هو في ادارة جيش بكامله. فعليك تجهيزه أي تجهيز كل الوحدات في آن. وعليك دفع مستحقاتهم في الوقت المحدد. كما يحتاجون لثلاث وجبات طعام يومياً وأماكن للنوم، ووقود. ويبدو كل ذلك سهلا ويسيرا لكنه بغاية الصعوبة. وإن كنت لا تمتلك كل ذلك فهذا يعطل عمل الجيش ."

واجه معلمو التدريب مصاعب وتحديات هائلة وبطرق ومواقف عديدة. لقد خلّف صدام حسين وراءه تركة تشكل وحدها معضلة كبيرة. فقد نمّا وشجّع بناء مجتمع شبه عسكري يتمتع فيه الجنرالات والضباط بامتيازات باذخة كالطفيليات على حافات النظام، أما الجنود فكانوا وقود وحطب المدافع، اما ضباط الصف – كالعرفاء الذين يشكلون العصب الحيوي للجيش الاميركي، فليسوا أكثر من كميات مهملة لا يذكرها أحد. وبهذا الصدد قال لي رائد الجيش بوب باتمان: "حاولنا خلق منظمة ضباط صف محترفين فلا يوجد شيء كهذا في كل المنطقة. ولا في الوحدات النظامية ولا في الشرطة ولا في [القوات] العسكرية".

كانت الانقاسامات العشائرية والعنصرية معضلتين كبيرتين. وخلال نصف حواراتي تكرر سمعي لصيغ عديدة للمثل العربي القائل "أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب. وقد

أكد لي تي. أكس.هامز بان "ما يخلق التلاحم في الجيش هي الثقة" ومضيفاً "وما نجده هنا مجتمع لا يستند الى الثقة". كما أرسل لي ضابط مارينز شاب في رسالة الكترونية قائلاً: "وبسبب قيام صدام بقتلهم وتعذيبهم كيفما شاء لم يتبق في العراق ما يكفي من أبناء المرحلة العمرية ١٨-٣٥ عاماً الا القليل من الرجال الصالحين والمؤهلين صحياً وعقلياً ومؤهلين للخدمة، ومن تتوفر فيهم تلك الصفات. وفي معظم الحالات يضمرون حقداً ممضاً لأقرانهم من قوميات وأديان [مذاهب] أخرى."

ومفهوم وتقاليد العراقيين في التعامل مع السلاح لا تعدو يا للغرابة ميزة بل وعلى العكس معضلة أخرى. فقد تسببت بخلق أو بظهور عصابات لا قطعات منظمة. وقد أبلغني خبير بأن من "السهل أن تكون مسلحاً لكن من الصعب أن تكون جندياً" ثم متابعاً "فإن كنت مسلحاً فليس مهماً أن تطلق النار بصورة صحيحة. وبوسعك اطلاق النار بالاتجاه العام كالآخرين، وسيمكن معالجة ذلك بطريقة ما".لقد كرر أمامي العديد من معلمي السلاح عادة العراقيين بتكرار القول "إن شاء الله سأرمي" أو ما يعرف بالاصابة المباشرة (الطلقة الذهبية) للرامي الممتاز. و أكد لي ضابط ما زال يخدم في بغداد "غالباً مايكررون تلك الحكم والعبارات عند توجيه السلاح والرمي" وثم متابعاً " الموت فكرة فواحة من حولهم".

كانت هجمات المقاومة المستمرة معضلة كبرى وليس وفق الطرق المألوفة والواضحة. لقد حاول عساكر الولايات المتحدة الفصل دائماً بين التدريب والقتال. فللقتال طعم مر ولكنه سيؤدي مع

الأيام ويا للغرابة الى قتل الكفاءة. ففي القتال تتجاهل القطعات المألوف وتبذل كل ما في وسعها لتظل حية. لهذا السبب يعتبر البنتاغون القطعات العائدة من القتال كقوات "غير جاهزة" [أو في مرحلة اعادة تنظيم Re-organization] حتى ترتاح ويعاد تدريبها وفق السياقات المقررة. كان ومن الناحية المبدئية أن يتم تدريب الجنود والشرطة العراقيين بعيداً عن ساحات القتال ولكنهم كانوا عرضة لهجمات المقاومة منذ لحظة تجنيدهم. وتزايدت الضغوط عليهم باستمرار نظرا للعداء الشعبي العام للمحتل الأجنبي. وعن ذلك قال لي باراك سالموني "أعرف أمر لواء عراقي كان يخلع بدلته العسكرية قبل ذهابة الى بيته كي لا يكشف أحد مهنته ". أما الضابط العراقي المذكور فقد قال لمحدثي "لقد ترسخ في أذهاننا أن نحرص على عوائلنا والا تقتل على أيدي المتمردين بينما نقاتل هؤلاء في مكان أخر". وقد وجد مكتب المحاسبات الحكومي [الأميركي] أن منتسبي الوحدات الأمنية [العراقية] العاملة وسط "مناطق وظروف كهذه كانوا يفرون من الخدمة بأعداد كبيرة".

اللغة

تظل اللغة معضلة كبرى ودائمية. واحدى المفاجآت التي كشفها التساؤل عن مصاعب تدريب القوات العراقية هي انه غالباً ما يقود الى مقارنة بما جرى في فيتنام. ولربما كان ذلك بسبب أن كل شيء حول حرب فيتنام تطلب الكثير ليتطور وتطلبت "فتنمة الحرب" الكثير من التفكير والتطوير من قبل الاستراتيجيين وأكثر مما توفر من فرص لـ "عرقنة" حرب العراق. واحد الاختلافات الكبرى هي أن الأميركان اختاروا اعطاء المنتخبين للتدريب في

فيتنام دورة تدريب لغوية لستة أشهر. وتلك مدة أقل كثيراً مما يكفي لنيل أية مهارات ولكنها كافية لتوفير ولو نواة خبرات لم توفر لمن خصصوا للعراق من الأميركيين.

كذلك فإن أنماط الاحتراف المهني للجيش في الولايات المتحدة تعد مشكلة هي الأخرى.فلأسباب عائلية ولأغراض الترقية كان الجنود الأميركان يبدلون (يدورون Rotating) في نهاية كل عام، وقد يعاد بعضهم الى العراق ولكن ربما لمهام أخرى وفي مناطق أخرى من البلاد.وهكذا ينتقل المدرب (المستشار) الذي تولى بناء علاقات ما في القرية او مع وحدة شرطة ليأتي بديل عنه مستشارا جديدا لا يحسن العربية. وعن ذلك قال لي تيرينس دالي المختص بحرب العصابات في فيتنام "وهكذا فجميع العلاقات التي أقامها مستشار ما ،وكل المعرفة التي بناها ذهبت معه". تنص جميع كراسات حرب العصابات على الحاجة الى العلاقات الشخصية الطويلة والقوية. وقال تيرينس دالي أيضاً "يجب أن نحدد ونعلن أعداد ما نحتاجه من ضباط وضباط صف ومن ثم ندخلهم بدورات لمدة ستة أشهر في مبادئ اللغة العربية. وخلال هذه الدورة سنعرف المناسبين للعمل لمدة خمس سنوات. فذلك خير من النظر اليهم كحاجيات widgets".

أكدت جميع الدلائل في الوطن أن تدريب العراقيين قضية مزعجة ومثيرة للقرف.ولا يتطرق اليها مناهضو الحرب الا لماما. أما مساندو الحرب فيكررون دعمهم ومساندتهم ولكنهم يتعامون عن النسب والاحصائيات في قوائم المطلوبين للتطوع ولا تتطرق اليها الصحف. ومل دونالد رامسفيلد كما يقول مقربون منه من الشأن العراقي

برمته عموماً وما يلوح من حماس متدفق وتقدم في العملية ومهما تعددت أنواعه ومجالاته فهو لا يتناسب ولا في مجال منها مع حجم التحديات لمهام اعادة بناء المؤسسات العسكرية الأميركية.

كان للنقص في تقدير أهمية هذا الأمر وتحديد طرق ووسائل معالجته وعلى وجه السرعة نفس الأثر لتجاهل معدات ومؤسسات العمل. وفي ربيع ٢٠٠٤ وجد محققون من ديوان المحاسبات الحكومي أن ليس لدى وحدات الشرطة العراقية الا ٤١% مما تحتاجه من عجلات لمهام الدورية و٢١%فقط من أجهزة الاتصال اللاسلكية (الراديو) و٩%من دروع (صداريات) الحماية. ولم تحصل مديرية الدفاع المدني العراقية وهي مؤسسة [شبه] عسكرية على اية دروع حماية. ووفقاً الى تقرير ديوان المحاسبات ذاك "فقد لاحظ تقويم القوات متعددة الجنسيات بأن منتسبي تشكيلات الدفاع المدني العراقية يشعرون بأن القوات متعددة الجنسيات لا تنظر اليهم بجدية، وقد تأكد ذلك في تجاهل ما يقطعونه لهم من وعود وقلة ثقتهم بالقوات متعددة الجنسيات ذاتهم".

ورغم تأكيد معظم من تحدثت اليهم بأن لديهم علاقات ودية مع العديد من أقرانهم العراقيين فقد سادت أجواء قلة أو انعدام الثقة حتى بقوات كذلك. كان يخشى المدربون الأميركان ويتطيرون من كيفية استخدام العراقيين لما يتلقونه من مهارات منهم مستقبلاً وهل سينتهي الأمر باستخدام العراقيين تلك المهارات ضد مدربيهم وعلى أيدي بعض متسللين خارجيين أو جنود سيغيرون ولاءهم وارتباطاتهم. شكت وزارة الدفاع [العراقية]من

أن اميركا لا تسلمهم سوى معدات بسيطة كـ 'الكلاشنكوف 'لا البندقية M٤ الأفضل، وعجلات بك آب، لا الدبابات. ولكن تلك المعدات يصر الأميركان قد تكون الأفضل للاحتياجات العراقية الحالية. كما أن تلك المعدات سوف لن تتسبب بالكثير من المشاكل لو ساءت العلاقات العراقية الأميركية.

ومع ذلك تظل المعضلة الأكبر هي:نوعية الحرب التي قد يخوضها الجيش العراقي. ويؤكد أحد المصادر الكلاسيكية في حرب العصابات أن "تصعيد الفوضى والاضطرابات هو هدف تقليدي في المقاومة" ويواصل قائلاً ف "تمزيق واربك اقتصاد البلاد يساعد على تفكك النظام و تقليص قوى وسلطة الدولة (أي القوات الحكومية) . والأكثر أن تعميم الفوضى سهل التكاليف من جهة لكن من الصعب منعه. فقد تدمر المقاومة جسراً ما وعليه لابد من حماية جميع الجسور، وقد يلقي مقاوم رمانة يدوية في دار سينما لذا لابد من تفتيش جميع الداخلين للسينما بدقة".

"ترابط وتتلازم الجبهتان الحربية والداخلية بشدة ، وأن التقدم على أحداها مستحيل دون التقدم في الأخرى وبذا لابد من موازنة أي تحرك عسكري بتأثيره السياسي والعكس بالعكس".

هذا ليس كتاباً عن العراق فكتاب (حرب العصابات في النظرية والتطبيق) للضابط والمحلل الفرنسي David Galula صدر قبل أكثر من ٤٠ عاماً استناداً الى تجارب بلاده في حروبها في الجزائر.

حين سألت جنرال ديفيد بتريوس: أين بحث عن دليل عمل خلال فترات اشرافه على مهام تدريب[العراقيين]: أجاب بأنه قرأ لورنس

[العرب] كثيراً ولاسيما في الأوقات العصيبة بوجه خاص". وهناك كتاب هام في الموضوع للمقدم في الجيش الأميركي هو (John Nagal؛ جون ناجال) الذي قاد وحدة مدرعة (دبابات) في العراق وعنوان الكتاب هو: (تعلم أن تأكل الحساء بسكين) . وهذا مصطلح أطلقه ت.أي.لورنس تعبيراً عن المهارات المطلوبة.

وأكد لي تيرينس جالي أن "ما من جيش حديث اعتمد على أساليب القتال التقليدية نجح في حرب عصابات. تتمسك التعبئة التقليدية بل وتتحرق لقتل العدو، والعسكرية الأميركية بهذا الصدد تمتاز بقوة نارية ودقة لا تباريان في تفوقهما "لكن مكافحة حرب العصابات الأفضل والأروع لا تتركز على قتل المتمردين بل على السيطرة وخلق أجواء أمينة يسهل معها كسب قلوب وود السكان" على حد رأي تيرينس ديلي هذا.

من كل ركام أدبيات وما كتب عن حروب التحرير الشعبية وحروب العصابات نصل الى نقطتين مركزيتين:

الأولى هي بطبيعة الحال الترابط الوثيق (التوأمي) بين الغايات والموضوعات السياسية والعسكرية على المدى البعيد [والاستراتيجي] مما يعطي الأفضلية للجيش العراقي على أية قوى أجنبية، فهو يتكلم لغة البلد كما بوسعه فهم والتقاط أبسط الأشارات، ويرتبط عمله بالمصير النهائي والكلي للعراق.

أما الثانية: فيظل دحر حرب عصابات من اصعب وأعقد أنواع الحروب والقتالات والولايات المتحدة لا يمكن أن تربح حرباً كهذه في العراء ولكنها تأمل أن يربحها العراقيون.

خلال عامي الاحتلال الأوليين كانت جميع الدلائل والمؤشرات سيئة. لقد وجد تقرير داخلي للبنتاغون جاء فيه "أنهى أول فوج عراقي التدريب الأساسي أوائل ٢٠٠٤م وزج به فوراً في عمليات قتالية دون معدات كاملة". كانت معدلات الغياب والهروب دون اذن بين رقمين حسابين[من ١٠-٩٩%!] وظلت كذلك طوال العام.

سألت روبرت بيب من جامعة شيكاغو ومؤلف كتاب (Dying to Winنموت لننتصر) عن الارهاب الانتحاري والصادر حديثا عن معضلات الغياب والهروب التي شاعت في القطعات العراقية في الموصل والفلوجة والمواقع الأخرى فقال:"في الحقيقة لم أستبعد حدوث ذلك فحين تزج بقطعات لم تكد تقف على قدميها بعد وتكلفها بمهام قتالية شبه مستحيلة وأشدها ضخامة في المتطلبات ك: مهاجمة (عملية تعرضية ضد) مدينة. وحتى لو كلفت قطعات شديدة الاخلاص فأنت عملياً تطالبها بالانتحار".

أظهر تقرير لمكتب الحسابات العام نسبة الخراب فقد هرب نصف منتسبي وحدات الدفاع المدني حول بغداد في النصف الأول من نيسان/ أبريل و٣٠% من منتسبي تلك الوحدات في المنطقة مابين شمال شرق تكريت وجنوب شرق الكوت.أما حول الفلوجة فقد بلغت ٨٠%.

هذا ما كان الوضع عليه ليلة انتخاب الرئيس الأميركي ؛ ويوم بدء تطبيق مقترب أميركي جديد.

ديفيد بتريوس

وصل جنرال جيش جديد للاشراف على تدريب القوات العراقية: ديفيد بتريوس والذي نال للتو نجمته الثالثة (جنرال ثلاث نجوم).

لفت هذا التعيين الأنظار ضمن العساكر الاميركية. فجنرال باتريوس حامل دكتوراه من جامعة برنستون وقاد الفرقة١٠١ صولة جوية في قاطع الموصل ٢٠٠٣م ويعد بين الشباب الذهبي. أوضح تكليف هذا الجنرال بأن تدريب العراقيين أصبح عملاً مهما وجذاباً؛ فـ [التدريب ليس مما يحبه القادة ولا الجيدون من الضباط].وبات من المؤكد ووفق كل الاعتبارات بأن جنرال بتريوس والسفير نيكرو بونتي يريدان تعويض ضياع الوقت والجهد بالتدريب ومناهجه.

منذ أن تولى بتريوس المهام لم تعد قيادته تعتمد على عدد المجندين، إذ بلغت أعدادهم ٢٠٠ ألف نحو آذار/مارس ٢٠٠٤م ، بل على "جاهزية القطعات".كانت تخصيصات التدريب المالية تحت معدلاتها لذا قدم بتريوس المزيد من الأموال والمعدات.

تغيرت استراتيجية التدريب كذلك. وتم التأكيد على معايشة المستشارين الاميركان للتدريب مع الوحدات العراقية.وبدأت عملية دمج مجموعات من مشاة عراقيين مع وحدات اميركية قادرة على توفير غطاء جوي وأية خدمات واسناد منظور تدعو الحاجة اليه. لتوفير المال والحد من فرص الانقلابات قلل صدام حسين ممارسة الجنود أو منع بالمرة الرمي بالعتاد الحقيقي خلال التدريب. شمل هذا الحرمان حتى قطعات النخبة في الحرس

الجمهوري أولم يسمح لها برمي أكثر من عشر اطلاقات لكل جندي سنوياً قبل الحرب بينما يصل معدل رمي جندي المشاة الأميركي النموذجي الى ٢٥٠٠ اطلاقة. وأمام دهشة واستغراب الجيش العراقي أدخل بتريوس تمارين الرمي بالعتاد الحقيقي للمجندين العراقيين الجدد ؟

في نهاية عام ٢٠٠٤ ومع اقتراب موعد الانتخابات العامة أستخدم نيكروبونتي فطنته وذكاءه لتحويل ٢بليون $؛من مشاريع اعمار أخرى الى مشروعات التدريب. وعن ذلك قال لي الجنرال بتريوس "اعتبرت تلك خطوة شجاعة وأدت الى الكثير من الفوائد والمردودات" ثم مواصلاً "لقد مكنتنا من شراء العديد من المعدات الاضافية وتدريب الكثيرين وتنويع موضوعاته ومناهجه كما شيدنا المزيد من المباني الأمر الذي ساعدنا بالتالي على نشر الكثير من القطعات العراقية الجديدة في الميدان مع انتخابات ٣٠ كانون٢/يناير ٢٠٠٥ ."

شكل نجاح الانتخابات هذه نقطة تحول، على الأقل بالنسبة للتدريب. أخبرني بتريوس "لم نفقد زخم واندفاع الجهد المبذول في المجالات الأمنية" فقد تولى ١٣٠ألف جندي عراقي حراسة ٥٧٠٠مركز انتخابي وحدثت بعض الهجمات ولكننا مضينا قدما.

كانت هناك الكثير من الحيوية في مناهج التدريب لكن أكد لي جميع من تحدثت اليهم من جنرالات وجنود بأن الحملة العسكرية ستفشل في النهاية دون نجاح وتقدم سياسيين ، وإن أي جيش لا يحظى بحكومة مستقرة تدافع عنه وتصونه فإن أفضل الجنود تدريباً سيتحولون الى مليشيات محلية [عنصرياً أو طائفياً] وقادة

عصابات متحاربة. وقال لي ضابط عالي الرتبة "أعتبر نفسي متفائلا ومؤهلا ولكن ما يقلق هو انعدام الأهلية لدى القادة العراقيين. وبالتأكيد هناك الكثير من الأنشطة ظلت خارج سيطرة الأميركيين".

قسم التوتر الطائفي العراق وقسموا بدورهم الجيش الجديد. وقد عبر عن ذلك وبدقة روبرت بيب من جامعة شيكاغو بقوله "التفكير أن بوسعك توحيد الجيش العراقي هو كالتفكير أن بوسعك الذهاب الى جنوب الولايات المتحدة بعد الحرب الأهلية وانشاء جيش من السود والبيض يقاتلون جنباً الى جنب" وتابع قائلا:" بوسعك أن تدفع مرتبات وأجورا لبعض الناس ليتولوا مهام التدريب الأساسي وتحمل بعض المخاطر.لكن مالم يكونوا مخلصين للحكومة حقاً ليصمدوا ويستمروا إذا ما تزايدت المخاطر فسيولون الأدبار". وقد أثارت جميع الدراسات تقريباً والتي وضعت عن القوات العسكرية العراقية الجديدة شكوكاً حول مدى إخلاص هؤلاء.

(انتهى)